وجوهُ أربعةٌ للقاءٍ حارٍ جِدًا

يَحيَى الصُّوفي

الكتاب: وجـوه أربعـة
للقاء حار جِدٍا

المؤلف: يِحيِى الصًّوفي

رقم الإيداع: ٤٠٨١ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: 978-977-493-603-6
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

وجوهٌ أربعةٌ للقاءٍ حارٍ جِدًا

قصص قصيرة

يَحيَى الصُّوفي

يَحيَى الصُّوفي

إهـداء

إلى روح والدَيّ...

اللذين زرعا قدرًا كبيرًا من الحنان والحب،

والشعور بالمسؤولية في نفسي...

حد نمو جنان باذخات بشتى أنواع المشاعر الطاهرة

المقدسة...

ليس أقلها الشعور بالأمومة!

أهدي هذا العمل.

يَحيَى الصُّوفي

محتويات الكتاب

• إهـداء ٥

• تـوطئـة ٩

- الحُب العُـذري ١٣

- حُـب من خلف النافذة ١٩

- مُتعـة الحيـاة ٣٧

- المـرتـل ٤١

- المُراهقـة ٤٥

- أضغـاث أحـلام ٥٥

- السجـن أرحـم ٦٧

- إنـه ولـدي البكـر ٧١

- أحـلام فتـاة شرقيـة ٧٥

- ظـلال امـرأة ٨٣

- حُـب غـامض ٨٧

- وجهًا لـوجـه مع شـارون ٨٩

- صـقـر ٩٩

- وجوهٌ أربعة للقاء حار جدًا ١٠١
• الوجه الأول: سقوط الآلهة ١٠١
• الوجه الثاني: سقوط الأقنعة ١٠٤
• الوجه الثالث: سقوط الحُب ١٠٨
• الوجه الرابع: سقوط الشيطان ١١٢
- التوأم ١١٧
- ممبا ١٢١
- القيامة ١٢٥
- إسرائيلية من يهود «الفلاشا» ١٣١
- خطوة للأمام... خطوتان للخلف ١٣٥
- قصص قصيرة جدًا ١٥١
• خفقة أُذن ١٥١
• نظارة ١٥٢
• ثروة ١٥٣
• رحلة عّبْر الزمن ١٥٤
• نقد وآراء وتعليقات ١٥٧
• المؤلف في سطور ٢٣٣

تـوطئـة

هذا الكتاب (المجموعة القصصية)، كنتُ قد قمتُ على خطّ قصصه، خلال الأعوام السابقة، ولم يتسنَ لي نشره -للأسف- لضيق الوقت، وهو يضم ستة وعشرين عملاً، بين القصة، والقصة القصيرة، والقصة القصيرة جدًا، تتراوح مواضيعها بين الهموم الاجتماعية، والعاطفية، والسياسية، حيث تضفي اللغة الفلسفية على بعضها -مقدار ما يضفيه الخيال على بعضها الآخر- الكثير من التشويق والحكمة والرومانسية.. يتألف من حوالي مائتين وثلاثين صفحة، من ضمنها ملحق خاص، يشمل بعض النقاشات والدراسات والنقد، والتي تتعلق ببعض الأعمال المنشورة فيه، وردودي عليها.

وهو يتبع مجموعة من أعمالي الأدبية المتنوعة، تضم فيما تضم، بالإضافة للقصة (منها مجموعات موجهة للطفل والناشئة)، الرواية، المسرح، الشعر، الخاطرة والمقالة، الدراسات، أدب المراسلات والسيرة.

وينتمي إلى مجموعتي السُباعيّة، التي قمت بإعدادها للنشر، والتي تشترك جميعها، سواءً من حيث الشخصيات، أو من خلال ترابط الأحداث والأماكن التي جرت فيها، بلحن واحد، وتضم الأعمال التالية:

١- وجوهٌ أربعةٌ للقاءٍ حارٍ جِدًا : قِصَص
٢- الوَردةُ الجوريةُ الحَمراءُ : مَسرَح
٣- نَسمةُ الغَربِ : مِن دَفاترِ الوَطنِ العَتيقةِ / شِعر
٤- الخاتَمُ الرَّخيص : مِن وَحيِ الرّوحِ / شِعر
٥- الحُجرَةُ السِريَّةُ : مِن وَحيِ القلبِ / شِعر
٦- حبٌّ عبرَ الأَثيرِ: أَدَبُ اَلمُراسَلاتِ
٧- نِسائي الأُخرَياتُ : ما ملكهُ قَلبي بالحُبِ / أدَبُ السيرَةِ

يَحيَى الصُّوفِي

٢٠١٩

وجوهُ أربعةٌ للقاءٍ حارٍ جِدًا

الُحـب العُـذري

(أنا لا استحي أبدًا، من أن يكون وراء عزيـمتي امرأة،
وراء كل نجاح لي قصة حب)

يَحيَى الصُّوفي
مرسيليا (فرنسا) ١٩٧٧

هكذا عرفتُ المرأة وتعرَّفتُ عليها...

عرفتها أُمًّا حنت عَلَيَّ وما بخلتْ بلمساتها الحنونة، تخفِّف عني الألم عند المرض... تضمد جروحي بعد كل كبوة... وتضفي على حياتي من أُنسها ورباطة جأشها ألوانًا أطيافها خطوط متناسقة من السكينة والرحمة... وتحول كل ما يحيط بي من خوف، إلى واحة من الهدوء والإيمان.

تغدق عَلَيَّ بكلماتها الرقيقة العذبة وأغنياتها حتى أنام.

أرى في عيونها قلقًا عجيبًا من نوائب الدهر نحوي، فتقرأ عَلَيَّ نصائحها، وتعلِّق على قميصي الداخلي بجانب القلب، آياتٍ من القرآن مخطوطة بحرص، ومغلفة بإحكام، وكأنها تخاف من الكلمات أن تفرَّ هاربة، من وظيفتها بطرد الأذى عني، وحفظي من كل مكروه.

عرفتها أُختًا تتناوب على العناية بي كلما انشغلت أمي عني لأحد أعمالها... تعلِّمني وتقرأ عَلَيَّ واجباتي المدرسية...

تشعرني بقيمة وجودي قُربها رجلاً كلما احتاجت لي في خروجها للسوق. تدفع عني غضب والدّي إذا ما أسأت التصرف... تخبئني خلف ظهرها لتتلقى بالنيابة عني التأنيب وفي بعض الأحيان الضرب!

تقصُّ عَلَيَّ القصص الطريفة، فتملأ خيالي الغض بصور الأنهار والطيور والأشجار، وكل أنواع الحيوانات التي أعرفها والتي لا أعرفها... تجعلهم عقلاء يتكلمون بلسان البشر... ومن القرآن آيات تفيض عَلَيَّ بالأمان والسلام.

عرفتُها صديقة تشاركني مقعد الدراسة في الحضانة، حيث كنت أبرع بتقليد الأبطال في القصص الخيالية التي سمعتها لأجذب إليّ اهتمامها، ولم أكن أعرف بأن الفتاة لا تهتم بتلك الحركات البهلوانية، بالقدر التي تهتم بمشاركتنا قطع الحلوى التي نحملها!

فكنتُ أُصاب بخيبة الأمل، من كونها لم تهتم لِمَا أعرضه عليها من مهارة بالقفز، رغم تعرضي للكدمات وانشغالي عن مُدرسي من أجلها بتوزيع الابتسامات!

عرفتها جارة لنا في الحي، تطل عَلَيَّ من شرفتها بصمتها المعتاد، ونظراتها المليئة بالفضول!

عرفتها قريبة تشاركني حصاد «شقائق النعمان» في الربيع، ومطاردة الفراشات في كل مرة نخرج في نزهات الصيف العائلية... تستمع لي... أقص عليها وفي كل مرة قصة غريبة مليئة بالمفاجآت... فأثير فضولها فيما أروي...

وعندما أتوه في السرد وأضيع عن الحل، كانت تشاركني في البحث عن نهاية! فأكتشف سذاجتي، لأنها تعرف بأن كل ما قصصته عليها هو من وحي الخيال... فأضحك لغبائي وأصفق لها نباهتها!

عرفتُها فتاة شابة يفيض من عينيها بريقٌ غريب ينمُّ عن الفطنة والعشق... وعندما التقى نظري بها صاحبتها بابتسامة مليئة بالإعجاب، فأُغرمت بها... ورغم اهتمامها الكبير بي، فأنا لا أعرف حتى الآن إذا ما كانت قد أغرمت بي وبادلتني مشاعري وحبي... لأنني وخلال تعلقي بها، لم يكن لدي الوقت الكافي لأسألها عن مشاعرها اتجاهي!

لقد كانت اللحظات القليلة التي كنا نسرقها بعيدًا عن أعين الأهل قصيرة جدًا... جدًا -أم هي كانت تبدو كذلك؟- لدرجة أنها لا تسمح لنا إلا بإلقاء التحية، وتبادل النظرات والابتسامات...

فالصمت هو من كان يخطف الزمان والمكان، ليحملنا إلى عالم الغيب، ويلقي علينا بثوبه السحري، فنذوب مع الأشياء التي تحيط بنا حتى نختفي تمامًا عن الأنظار... أو هكذا كان يخيل لنا!

عرفتُ بعدها بأن حب المراهقين أكثر صدقًا وعفويةً وبراءة...

وبأن القصائد التي كنت أقرؤها عن الشعراء العُذريين لم تكن وهمية...

وبأن البطل فيها يغفر لحبيبته كل هفواتها... ولا يرى فيها رغم مرور السنين، إلا لحظات السعادة التي غمرت قلبه وحُفرت في كيانه!

وبأن مشكلتنا مع هذا الحب الخاطف؛ هي أننا لا ندركه في حينه، ولا نعترف به، وسرعان ما نغلق باب القلب دونه!

فكما تحل علينا الجراءة والقوة للاعتراف به، والدفاع عنه بغرور وكبرياء -على أنه هو من سيحقق لنا وجودنا ويفرض على الآخرين استقلالنا- ينتابنا نفس الغرور والكبرياء، بأننا لن نسمح لمن يقاسمنا الحب بالتصرف بحياتنا ومستقبلنا!

ولا نعترف بقيمة ذلك الحب وصدقه وعفويته، إلا بعد أن نخوض تجارب أخرى نلتقي فيها ولأكثر من مرة مع من نُعجب به ونحبه ونعاشره...

لنكتشف فيما بعد، بأن كل العلاقات التالية لذلك الحب هي علاقات مبنية على الخداع والكذب والمصالح!

وبأن حب المراهقين ذاك؛ يبقى من بين كل ما عرفه وعاشره، هو الأنبل والأسمى... بالرغم مما يجلبه في بعض الأحيان، من أذى للأهل وحسرة للمُحبين!

فطوبى لمن عرف ذلك الحب الطاهر، وطوبى لمن سعى للحفاظ عليه، وتوجه بزهور وثمرات تملأ حديقة حياته بالهناء والحبور.

وقصصي مع الحب هي ككل القصص المفعمة بالإعجاب، وتبادل المشاعر الرقيقة الشفافة، المليئة بالأماني والأحلام

الوردية الصادقة... وتكون مشحونة بالحاجة إلى وجودنا بالقرب ممن نحب، متجاوزين كل المحاذير والمخاطر، وتكون دافعًا لنا لصنع المعجزات، مُحفِّزة للهمم ومُثيرة للعزائم.

حيث تجعلنا وفي كل مرة، أقرب ما نكون إلى تحقيق آمالنا وأحلامنا، بالرغم مما نصاب به من غشاوة غريبة عجيبة، تجعل من تلك القصص أجمل حدث يصيبنا في حياتنا... وممن نحب أعظم وأخلص ما وُجِد في الكون!

ومع إنني لا أعترف إلا بقصة واحدة لا غير... وهي تلك التي تحطُّ رحالها علينا فجأة وبدون سابق إنذار...

وفي لحظة من الزمان والمكان لا يكون لنا فيه أي دور، أكثر من كوننا ضحية النظرة الأولى، التي عادة ما تصاحبها الابتسامة الأولى، وبلمح البصر، نكون قد تلقينا الشحنة الكافية من الكهرباء الإلهية... حيث نفقد السيطرة على مشاعرنا، ونصبح بعدها عُرضة للتسليم بكل ما نملك... فنفيض بكل ما في القلب لمن نحب، دون أي تردد، وتكون الغلبة فيها لمن هو أقل تأثرًا بالحدث!

إلا أنني لا أنفي بتاتًا، ما تحمله القصص والتجارب الأخرى من فائدة، وما تتركه على سحنات حياتنا من آثار سلبية كانت أم ايجابية!

وكنت أتساءل دائمًا: لماذا لا يعترف الإنسان إلا بقصة واحدة وحيدة في حياته، ويبقى معلقًا بأهدابها، وسجينًا لتلك اللحظات الخيالية التي كان قد عرفها؟

هل لأنه قد تعرَّض لها وعايشها وهو في مرحلة المراهقة؟ تلك المرحلة التي تطفق فيها المشاعر الصادقة، الصافية الخالية من المصلحة، ويكون الطرفان فيها عفويين في تصرفاتهما، مخلصين لوعودهما وآمالهما وتطلعاتهما... مستجيبان فيه لنداء القلب!

هل هذا هو ما يسمونه الحب العذري؟

جنيف ٢٠٠٤

••••

حُب من خلف النافذة

(١)

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً، عندما لاحظتْ أمل بأن ثمة حركة غير عادية تجري في البيت المُقابل لمنزلها... حيث تطلُّ عليه من نافذتها، ذلك البيت المهجور بحديقته الصغيرة، وأشجار البرتقال والليمون والأكدنيا التي لم تُمس منذ أكثر من عشر سنوات!

عشرة أعوام من الحكايات الغريبة، وقصص عن أشباح تسكن في زواياه المظلمة، خلف نوافذه المغلقة المليئة بالأسرار! حتى بدت ملامحه الوديعة، مع سقفه القرميدي الأحمر، كقصر خرافي يشبه ما كانت تراه في قصص الحب الخيالية الملونة، التي كانت تقرؤها عندما كانت في السابعة من العمر!

كانت يومها تتمنى أن تكون كبطلتها «سندريلا»، بفستانها القرمزي المطرز بألف نجمة، وحذائها المخملي الأبيض، وعربتها المزخرفة بشتى أنواع الزهور، وأحصنتها البيضاء وقد وقفت تنتظر عودتها بكل إباء وغرور!

وكانت وفي كل مرة تطل من خلال نافذتها الصغيرة -الوحيدة التي سُمح لها بالإطلالة من خلالها، بدون حجابها المعتاد- تستعيد ذلك الحلم الجميل، الذي عشعش في خيالها منذ أن كانت طفلةً صغيرةً...

تتعثر وهي هاربة، لتترك على إحدى درجات السلم، فردة من حذائها المخملي الأبيض...

وكانت عندما تعبر بجوار ذلك القصر المهجور، لتقطف بعضًا من أزهار الياسمين المتدلية من فوق أسواره المنهكة... تجده كبيرًا وكبيرًا جدًا!

ولم يتضاءل حجمه وتنحسر عدد درجاته، ويفقد اهتمامه لديها، إلا بعد أن أنهت الثانوية، وبدأت تعدُّ العُدة لدخول الجامعة... فلم يعد ذلك البيت المُوحِش يثير فضولها!... والدرجات الثلاث لم تعد كافية لتعيق هروبها من قصر أميرها... والحديقة صغرت على قدر لم تعد تسع عربتها الكبيرة... كبر حلمها... والنافذة المدورة الصغيرة التي ضمت ساعتها بعقاربها الثلاث، وأجراسها السبعة قد تلاشت، ولم تعد تدق منذرة قدوم الثانية عشرة ليلاً!... وأميرها المنتظر لن يعثر على حذائها، ولن يجوب المدينة بحثًا عنها، ولن يطرق بابها كما كانت تتمناه وتنتظره منذ أكثر من عشرة أعوام!

لقد انحسرت المسافات، وتضاءل عدد الدرجات، وعادت للأشياء أحجامها الطبيعية، وعاد لذلك المنزل وحديقته الصغيرة شكلاهما المألوفان ككل البيوت القديمة!

وتلك الورود التي كانت تجمعها له بين أوراق دفاترها الملونة بالذكريات؛ فقدت أريجها، ولم يبق منها إلا رقائق هشة تُشبه أجنحة الفراشة الميتة!

(٢)

« لابد أنهم قد عادوا أخيرًا »...

تنهدت أمل وهي تحاول أن تستطلع من خلال الخيوط الدقيقة للأنوار المنبعثة من خلف النافذة، عن شكل الساكن العائد بعد غياب طويل عن الوطن!

ثم تساءلتْ:

«كيف يبدو خالد يا ترى؟ ذلك الشاب المرح... هل سيذكرني إذا ما رآني؟... هل سيذكر أمل الفتاة الصغيرة، التي كان يلاعبها عندما كانت تحل عليهم ضيفة مع والدتها؟

كيف كان يحملها بين ذراعيه، ليضعها على الأرجوحة الخشبية، وهو يهزها ويغني لها، ويحاول إضحاكها بحركاته الظريفة التي تشبه المهرجين؟

هل سيتذكر الوردة الجورية الحمراء التي أهداها لي، بمناسبة عيد ميلادي العاشر، قبل أن يغادر وعائلته الوطن؟

تلك الوردة التي لازلت أحفظها بين أوراقي... أتفقدها كلما اشتقتُ لأن أراه واسمعه!».

فجأة تذكرتْ بأنها لا بد تحتفظ بها، في أحد دفاترها العتيقة، الموضوعة في صندوقها الخشبي الصغير، بانتظار هذه اللحظة... لحظة عودة أميرها الموعودة!

ذهبت لتحضره، وتتفقد محتوياته، باحثة بكل اهتمام عنها...

فوقع نظرها صُدفة على آخر الصفحات التي كانت قد كتبتها... قبل أن تغلق على تلك الوردة الحمراء، والتي لم يبق منها إلا بتلة واحدة... وإلى جانبها بعض كلمات تقول:

«هذه أخر بتلة من البتلات العشر الحمراء، المؤلفة من الوردة التي أهديتني إياها... كنت أترك في كل صفحة من صفحات مذكراتي واحدة منها، وبدأت مع أولاها: (يحبني... لا يحبني)... وهكذا حتى وصلتُ إلى العاشرة والأخيرة، حيث وقعت على عبارة (لا يحبني) وعرفت أخيرًا بأنك لا تحبني، ولا تفكِّر بي، وأنا كذلك!».

أغلقتْ أمل الصندوق بعصبية ظاهرة، وهي تحاول أن تطرد من ذهنها شبح أحلام جميلة عايشتها، وكانت قد وضعت حدًا لها، واعتبرت تصرفها ذاك وكأنه خيانة للعهد الذي يربطها بها، وأرادتها أن تكون سِرَّ أسرارها.

وتذكرت بأن العبارات الجميلة التي خطتها، وكل الذكريات... لم تكن إلا من وحي خيالها، وبأن لا شيء يربطها مع القادم الجديد.

«إذن لما أنا مضطربة هكذا؟»...

تساءلت أمل ثم تابعت:

«لابد لأن هذا الغريب القادم من بعيد، قد حلَّ فجأة ليسرق ما هو لي: قصري، أميري، حديقتي، أزهاري، أحلامي، ذكرياتي... ولن أتركه ولا بشكل من الأشكال أن يفعل! هذا كل ما تبقى لي!... هذا كل ما أملك!».

تقلَّبتْ أمل في فِراشها طوال الليل، وهي تحاول أن تتجاوز القلق الذي حلَّ بها فجأة، من جَراء وصول هذا الغريب، وقد استولى على كل أمالها وأحلامها بلحظةٍ واحدة... وقرَّرت أن تأخذ المبادرة لتدافع عما اعتبرته حقًا شرعيًا لها، فهي التي كانت تزيِّن هذا القصر الصغير بأحلامها، وترسمه في مفكرتها، وتعتني بأشجار حديقته وأزهارها... من خلال نظراتها القلقة عليها تتفقدها في كل صباح.

هو غائب عنه بعد أن هجره، ولا يربطه أي شيء به، سوى أنه إرثٌ مكتوب ومُهدى له على الورق!

واعتبرت بأنها أحق منه به، فهو يمثل كل شيء لها... بل وأكثر: حُريتها... فلن تستطيع بعد اليوم من الوقوف على نافذتها الوحيدة، التي تشرف من خلالها، على العالم الخارجي بحُرية.

وتصوَّرت بأنه سيسرق منها حتى حُريتها... وقررت ألا تتركه يفعل!

(٣)

في صباح اليوم التالي... استيقظت أمل على أصوات العمال، وهم يتناوبون على إخراج أغصان الأشجار التي قُطِعت، وبقايا من أوراقها المتكدسة على الأرض منذ سنوات.

شعرت وهي تراقبهم من خلف ستارة نافذتها، وكأنهم ينقلون بعضًا منها إلى المجهول!

لفت انتباهها علبة بيضاء للبريد، قد ثبتت على باب المنزل بطريقة لم تألفها من قبل...

«هكذا إذن... إنه لا بد قد عاد ليستقر هاهنا إلى جواري، وللأبد!».

تساءلت بامتعاض، ثم ابتسمت... لقد جاءها الفرج من حيث لا تدري، وصاحت بفرح:

«لقد وجدتها... سأكتب له... ستكون علبته هي نافذتي الجديدة، لكي استرد منها حريتي التي سرقها، بدلاً من تلك التي أغلقها... وأُجبره على الفرار!».

قررت الكتابة له... فخطت أولى رسائلها تستفزه وتسأله فيها عن نفسه... تاركة عنوان بريدها الخاص... ووقعتها باسم مستعار، ثم رمتها بعلبته البريدية قبل أن تغادر إلى وظيفتها.

لم يطل انتظارها طويلاً... حيث عثرت في اليوم التالي، ضمن بريدها، على رسالة منه يقول فيها:

«وصلتني رسالتك، وأنا لم أستغرب من وجودها، بقدر استغرابي من كاتبتها... التي لم يحصل لي وإن عرفتها من قبل! أخبريني مَن أنتِ؟».

أسرعت أمل إلى غرفتها حيث أوراقها وأقلامها... وخطت له بعض العبارات المختصرة، تسأله نفس سؤاله:

«رسالتك رغم قِلة حروفها فهي بليغة، ويبدو بأنك لم تهدر الوقت، ولديك رغبة عارمة في معرفة صاحبتها، وقد تتخيلها سهلة وهي ليست كذلك، ولكن بيني وبينك حساب قديم، ويجب أن نراجعه ونعيد لكل ذي حق حقه!... وأخيرًا، أتمنى أن تخبرني أولاً من تكون؟».

وكأنها أرادت بذلك أن تثير فضوله أكثر، قبل أن يعرفها، وتكشف له كل أوراقها.

وبالرغم من أنها كتبت له بجفاء، إلا أنها كانت تحتضن رسالته، وتعود لتقرأ كلماته القليلة بشيء من النشوة وهي ترتجف!

مضت ساعات قبل أن تستعيد هدوءها، واضطرابها غير المعهود، وكأنها ارتكبت إثمًا... فغادرت المنزل دون أن تتناول طعام غذائها، لترمي له بالرسالة وتمضي.

(٤)

في اليوم التالي لم يخب أملها... حيث وجدت رسالته الثانية إليها وقرأت:

« أنتِ لا بد تعرفين الكثير عني، وأنا لم أستقر بعد في بيتي، ولم أفتح أبوابه ونوافذه التي علا أقفالها الصدأ بعد... حتى أجد خصومًا لي، وحساباتٍ قديمة لا أعرف مصدرها، وأنا في كل الأحوال لا أمانع بالتعرف عليك أكثر، ومناقشتها إذا شئتِ، ولكن أخبريني كيف؟ ومن أنت؟ ولماذا تتخفين خلف اسم مستعار؟ ».

شعرت وهي تعيد قراءتها، بأنه لا بد يتمتع بالكثير من الخُلق، أو أنه يشعر بالوحدة مثلها، ويرغب بالتعرف إليها... أو ربما لم تكن ردة فعله معها على هذا النحو، إلا لتعوده على التصرف بلباقة مع مخاطبيه، تأثرًا بعادات وتقاليد البلاد التي عاش فيها!

لم تنتظر أمل عودتها إلى المنزل، فأمسكت بالورقة وكتبت له:

«أولاً أنا اسمي الحقيقي (أمل) ولن تجد صعوبة كبيرة في التعرف إليّ إذا ما نظرتَ حولك، ورأيتَ شيئًا ما قد تغيَّر... ألقِ نظرة من نافذتك؛ تجد عنواني الجديد... تستطيع أن تكتب لي إليه، ويسعدني التعرف إليك أكثر... ولكن قبل أن نلتقي لمناقشة ما نختلف حوله، عليك التوقف عن تقطيع

أوصال عروق الياسمين المتدلية على أسوار الحديقة، فهي تعني الكثير لي، فلا تستغرب... سأخبرك بالسبب لاحقًا!».

تردَّدت أمل في إيداع رسالتها، وشعرت بأنها لا بد تسرَّعت في التجاوب مع شخص غريب كان غريمًا لها منذ أيام... وتساءلت في سِرها، عن سبب اندفاعها اتجاهه بهذا الشكل، وبأنها ربما قد أخطأت في التحرش به على هذا النحو!

ولكن هي تعرف تمامًا بأنها لم تكن تتوقع إجابته السريعة لها، وبأنها ربما قد وقعت في نفس الفخ الذي نصبته له... وقعت بالحيرة والفضول... وها هي تكشف كل أوراقها!

«أي أوراق؟!»...

تساءلت أمل: «هو لن يعرف شيئًا عني أكثر من بعض كلمات وعنوان... واسم! أردت من خلاله أن أستكشف ردة فعله اتجاهي، والتعرف على مدى اهتمامه بي... إن كان يتذكرني حقًا، أم إنني مضيت مع بقية ذكرياته الحزينة عن وطنه إلى عتمة النسيان؟!...

أما إذا رغب باللعب، فيكون قد أعلن حربًا خاسرةً سلفًا على نفسه، وسأدير معاركها ضده بكفاءة... فأنا من يعرف مكانها جيدًا... أُشرف عليه من نافذتي، فأراه ولا يراني!

أستطيع بكل بساطة أن أفتح النافذة لأطلّ عليه، وأقرأ برنامجه اليومي: متى يصحو... متى يتناول إفطاره... متى يخرج، ومتى يعود... ومتى ينام... كل شيء تقريبًا... في حين هو لا يستطيع ذلك!».

ولهذا لم تتردد ثانية واحدة من متابعة ما عزمتْ عليه، وطلبت من البواب شراء وتعليق علبة بريدية خاصة لها، لوَّنتها بلون زهري مميز، وكتب عليها بحروف واضحة (الأستاذة أمل)

(٥)

سُرَّ خالد بوجود رسالة أمل بين بريده اليومي، وصُحفه التي لم تتأخر بالوصول إلى عنوانه الجديد، وقد وُضِعت على طاولة مكتبه القديم بعد أن جلبها الآذن، ووضع إلى جانبها فنجان قهوته المعتادة.

جلس يقرأها وهو يبتسم... لقد وجد في صراحتها وجراءتها علامات من الاستقلالية والثقة ما كان يتوقعها في بلدته المحافظة، فتناول القلم وكتب لها:

«لقد سُررتُ كثيرًا بوجود رسالتك الوحيدة في بريدي هذا الصباح... وسُررت بصراحتك... ويبدو بأنك قريبة مني كثيرًا لدرجة أن لا أراك فيها، وأنا لا أخفي عليكِ، بأنني حاولت العثور على أثرٍ لكِ، بين البيوت الكثيرة والنوافذ التي تُعدُّ بالمئات، والتي تطلُّ من العمارات الشاهقة، التي احتلت مكان البيوت القديمة في هذا الحي المتواضع، والذي تنكَّر للماضي على ما يبدو، وأخذ أجمل ما أملكه... وهو الوطن!

الوطن الذي حننتُ إليه وحلمتُ به، وتمنيت أن أعود إليه وأجده مع أهله وأحيائه... خلقه وقِيمه وروائحه المميزة...

أنغام الطيور وهي تهدهد، وغناء عصافير الدوري وهي تزغرد...

عندك حق عندما اشترطتِ عدم المساس بأغصان الياسمين مقابل لقائنا...

يبدو بأن من حسنات هجري لهذا البيت، هو أنني حافظتُ على آخر ملجأ آمن لكل الطيور والعصافير والسحالي وجميع أنواع الفراشات... وحتى أعشاش (السنونو) لم تفتقد لهجرتها مكانًا!

يبدو بأنني المتطفل والغريب الوحيد عليكم جميعًا...

فلا تقلقي، سأترك كل شيء على حاله... فهل أستحق مكافأتي بلقاكِ والتعرُف إليكِ؟».

ثم نادى على الآذن طالبًا منه إيداعها بالعلبة الزهرية اللون، المُعلقة على مدخل البناية المقابلة.

لم تتأخر أمل من هبوط درجات السلم الأربعين التي تفصلها عن علبتها... فلقد شاهدت الآذن -الشخص الوحيد الذي رأته إلى الآن- يقترب منها... وبحدس الصياد الماهر الذي ينتظر اهتزاز قصبته، مُنذرة بوقوع سمكة جديدة بالأسر؛ فتحت أمل علبتها، لتخلِّص تلك الرسالة من صنارتها، وتعيد إغلاقها بحرص شديد، كمن يعيد الطُعم لاصطياد أخرى... وعادت إلى غرفتها متشوقة لقراءتها.

ألقت نظرتها الأولى المعتادة تطالعها بسرعة البرق، ثم عادت لكي تتأمل السطور، تبحث بين حروفها عما يمكن أن

تخفيه من مشاعره المُخبأة فيها، فوجدته رصينًا وجِديًا أكثر مما توقعت.

عادت مرةً ثانيةً تتفحصها، وكأنها قد أغفلتْ أمرًا لم تستطلعه بما فيه الكفاية... وصدق حدسها، فلقد وجدت كلماته مطبوعة على ورقة ملونة، تُخفي بين رسوماتها الهادئة بعضًا مما يحب أن يقوله.

إنه النصف الآخر الصامت الذي تبحث عنه ووجدته...! فسُرَّت لاكتشافها... وجلست تخُطُّ له جوابها:

«أشكرك على احترام رغبتي في الحفاظ على أغصان الياسمين موحشة كما هي، وعلى البقية الباقية من أشجار قديمة، حوت فيما حوت، ذكريات وأحلام جيل كامل من أهل هذا الحي... تختصر آمالهم بالحفاظ على البقعة الخضراء الوحيدة التي تسر النظر، وتبهج الروح، وتعيد إلى النفوس بعض الأمل... خاصةً إذا ما علمتَ بأن الأماكن المعتمدة لإنشاء الحديقة الخاصة بالحي الجديد، قد سُرِقت وبيعت لتتحول إلى دولارات في جيوب المسئولين عن هذا المشروع... وبأن أشجارك الوحيدة الباقية، هي دليلنا بحلول الفصول الأربعة، بعد أن فقدنا الإحساس بها، في خضم الزحام والضجيج وروائح المازوت المنتشرة في كل مكان!

فمن خلال زهور أشجارك الوديعة وزقزقة العصافير، وهديل الطيور، نعرف بأن فصل الربيع قد حان... وعندما تتدلى أغصان أشجار الليمون والبرتقال من ثقل ثمارها

لتلامس الأسوار، نعرف بأن الصيف قد وصل... ومع حلول طيور (السنونو) تتسابق لتحتل الجحور البسيطة التي تركتها أسلافها، نعرف بأن الخريف قد قدم... وعندما تبدأ ثمرات الليمون والبرتقال تتساقط أرضًا صابغةً الحديقة وأطراف الرصيف، بألوانها ورائحتها المميزة العطرة، نعرف بأن الشتاء قد حلَّ علينا!

أما الياسمين فهي مزار الصغير والكبير من أهل هذا الحي، كلٌّ منهم يتزوّد من أزهارها لحاجته، ولم تبخل.

وإذا قُدّر لي أن أعدّ المئات من الملايين منها، التي أفرحت القلوب وزيَّنت الصدور، وعطَّرت المياه العذبة بدلاً من البخور، وكانت وسيلة العاشقين للدلالة على حبهم وامتنانهم وإدخال السرور... حتى المقابر لم تفتقدها، ففي كل جنازة منها المئات تنثر عليها في خشوع!

لكل واحد منا فيها ذكرى وقصة وحصة... سننازعك عليها إذا ما قررتَ سوءًا بها!

واعذرني قسوتي وجفائي... فهذا البيت هو كل ما تبقى لي... ما تبقى لنا من خضرة هذا الوطن ومن ذاكرته ووجدانه.

أمَّا عن سؤالك عن لقاءٍ قريب بيننا... فكل شيء في حينه أفضل... تحياتي... أمل».

استلم خالد رسالتها وقرأها بكل هدوء، ثم وضعها جانبًا وكأنها لا تعنيه، فلقد شعر لأول مرة بأنه يخضع لأسئلة صعبة ومحرجة!

إنه بكل بساطة يخضع للتحقيق عن أشياء تخصه، ولا يجب أن يتداولها مع أيٍّ كان.

وبالرغم من الصراحة البليغة التي تناولت بها أموره الخاصة تلك، وغِيرتها واندفاعها في تحويل مِلكيته وآخر قطعة من وطنه إلى أمرٍ عام ستتنازعه عليها... فلقد وجد فيما طرحته حقيقة لا يمكن أن يتجاهلها... وكان مستعدًا تمامًا أن يقايضها به، مقابل رغبته في لقائها والتعرُف إليها.

لقد شغلت عقله وأثارت فضوله... وحرَّكتْ جوانب منسية من طفولته، وعشقه وحُبه للوطن... لقد كانت -ومن حيث لا تدري- تعيد رسم اللحظات الباهتة الحنونة من ذاكرته، وتلوِّنها بألوانٍ مليئة بالفرح والتفاؤل.

تناول رسالتها ليعيد قراءتها باهتمام... وقرَّر أن يخطو خطوة أكثر جِدية معها، فهو لا يحب هذه اللعبة -رغم براءتها- أن تستمر... لقد تجاوز سن المراهقة، وعليه أن يحترم عادات وتقاليد أهل البلدة المتعارف عليها... فكتب لها:

«أتفق تمامًا على كل ما طرحتِه علي في رسالتك، ومستعد للقائك للتفاوض على التفاصيل، فأنا لا أخفي عليك بأنني سُحِرتُ بكِ، وتمسكك بما تحبينه وتعشقينه من وطنك، وأتمنى أن أكون بعضًا منه... علَّني أكسب اهتمامك وحبك وحنانك... أن تكوني بكل بساطة وطني... فهل تقبلين بي؟ أرجو ذلك... خالد».

تلقت أمل رسالته بشيء من الغبطة... وتفاجأت بصراحته ودعوته لها، واعتبرتهما إعلان استسلام من طرفه، وبأنها لا بد قد أصابت مقتلاً منه، فوقع بغرامها دون أن يراها.

وبالرغم من شعورها بالانتصار بمعركة لم تخضها كما تمنَّت، إلا أنها تردَّدت بالإجابة على رسالته... لأنه جردها من وهج المبادرة... فأصبحت بكل بساطة أسيرة دعوته المسالمة، وإعلانه لحبه دون مقدمات.

أُصيبت بالحيرة، وتناوب عليها القلق والاضطراب، وشعرت بمفاصلها ترتجف دون أن تعرف السبب!... فارتمت في فراشها، وقد أخذت أطراف الغطاء لتختبئ تحته، وكأنها تحاول الهروب من موقف صعب لم تتعود عليه، وأحسَّت بالمياه الباردة تغمرها بعد أن كانت غارقة بالعرق... لقد أصابتها اعترافاته بشعور غريب لم تألفه وبضيق وخجل!

(٦)

لم تستفق أمل من الحُمى التي أصابتها إلا بعد أسبوع... كانت تتهرب من الجميع، جميع من حولها، متحججة بشتى الأعذار... ونافذتها التي لم تُغلق منذ سنوات، لم تُفتح كما هي العادة لتتعرف من خلالها على تناوب الليل والنهار!

لقد فقدت الإحساس بالزمن، وشعرت بنظراته تطاردها، وبكلماته تبحث عنها دون كلل أو ملل... وبأنه لا بد سيعثر عليها ويطرق بابها بعد أن غابت عنه.

تذكرت أحلام طفولتها... تذكرت سندريلا وحذاءها... أميرها... قصرها... فشعرت برهبة الموقف وتخوفت من اللقاء.

فجأة تذكرت بأنها نسيت أن ترد على رسالته الأخيرة... نسيت أن تدله عليها... عما قررت... أن تترك فردة حذائها... دليله على وجودها!

فنهضت من الفراش، وخطت رسالتها المؤلفة من بضع كلمات تقول فيها:

«لقد تأخرتُ كثيرًا عليك، لأنني كنتُ مشغولة في بعض أعمالي، أشكر لك اهتمامك، وكلماتك المعبرة الحنونة... وأقبل دعوتك لي للقائك... ما رأيك بزيارتنا هذا المساء؟ لقد تحدثتُ إلى والديّ بالأمر، وهما فخوران بك، وبمعرفتك، ويحفظان لوالديك كل الاحترام، فلقد كانت تربطنا بكم صداقة قوية وقرابة، قبل أن تتركوا الوطن... وإن دقَّقت قليلاً في ذكرياتك البعيدة؛ لوجدتني أسكن في بعضها... أعذرك إذا نسيتني فلقد كنتُ صغيرةً جدًا يومها... نحن بانتظارك وإلى اللقاء... أمل».

نزلت أمل الشارع لتعبره للجهة المقابلة، حيث بيت خالد، ساعية إلى علبته البريدية فلم تجدها!

ظنّت بأنها لا بد قد أخطأت المنزل...

تفقدت المكان حولها بشيء من القلق، وعادت تبحث عن علبتها الضائعة، فلم تعثر عليها!

تخيلت للحظات بأنها لابد تهزي من آثار الحمى التي أصابتها!... «ولكن علامات تلك العلبة لازالت هنا بثقوبها الأربعة!».

تساءلت أمل: «ماذا حصل إذن؟ أين هو؟ ولماذا أُغلقت النوافذ والأبواب وعاد المنزل إلى سابق عهده مهجورًا؟!».

وقبل أن تترك المكان، رمت برسالتها من خلف سور الحديقة، وعادت إلى منزلها... وقلبها يشتعل بالحزن والخوف... وتمنت لو أن الأرض انشقت وابتلعتها على أن تجد نفسها في موقف كهذا... وشعرت بنوبة الحُمى تعاودها.

(٧)

مضى أسبوع آخر وأمل طريحة الفراش تهزي... حتى استيقظت على أصوات صراخ وعويل قادمة من الجهة الأخرى من الشارع، يصاحبه ضجيج لآلات ضخمة تعبره... ففتحت نافذتها تستطلع الأمر... فوجدت الجرافات الإسرائيلية تقوم بهدم المنزل، بحراسة الجيش وبعض من أفراد الشرطة!

شعرت وهم يقومون بقطع آخر الأشجار الخضراء الذي يضمه، ونقل آخر أحجاره في سيارات نقل عملاقة -لإفساح المجال لبناء جدار العزل المشئوم- بأن جُزءًا منها قد هُدِم وأُستبيح وأُغتيل!

صرخت بأعلى صوتها... حتى سقطت أرضًا، وقد أغمى عليها من الحسرة والألم...

ومن يومها لم تجرؤ على فتح نافذتها... لأنها فقدت وسيلة الاتصال الوحيدة بعالمها... التي كانت تفرح بالإطلالة من خلالها! ... خاصةً بعد أن خسرت مساحتها الخضراء الوحيدة، ودلالات الفصول الأربعة، ورائحة الزهور، وزغردة العصافير والطيور... وأُزيل آخر أثر لحلمها وحُريتها... والوجه الصغير الأصفر الذي كان ينبئها بوجود خالد خلفه... نافذته... انطفأ... وانطفأ معه قصره؛ قصرها... حُبه؛ حُبها... حُريتها؛ حريته... فجمعت الوصلات الكهربائية بعد أن فصلتها عن جهاز الحاسوب، ووضعتها معه في صندوق خشبي كبير، وأغلقت عليه بكامل ملفاته ومراسلاته... دون تغير.

جنيف ٢٠٠٤

••••

مُتعـة الحيـاة

تعبت البذرة من البحث عن قطرة ماء، طافت الصحراء لأكثر من ألف عام، تذروها الرياح... تأخذ بها ذات اليمين وذات الشمال... قَطعتْ وهي مُعلقة بوبر الجمال المُدن الكثيرة، شاركت بمعارك الفرسان، وبأفراح العرائس، والجنازات وقد تمشقت عنها الأكفان!... سمعتهم يتحدثون عن الحياة، عن الحُب، عن الموت، عن الأحزان.

ملَّتْ الترحال وهي تُلتهم مخلوطة بطعام القِطعان تارة... ليتخلصوا منها بعد ذلك، مع فضلاتهم في أرض جديدة خاوية من كل إنسان... سئمت الترحال... رغبت بتذوق طعم الحياة، طعم الأمان.

اقتربت ذات صباح من نبتة صبَّار ترجوها قطرة ماء، هزَّتها وهي أسيرة أشواكها صائحة:

- أرجوكِ قطرة ماء، من الندى الفائض بين إبرك السمحة علَّني أعرف الاستقرار!

نظرت نبتة الصبار مستغربة منها وقالت:

- أتستعجلين الحياة؟ ألا تعرفين بأنك ستلتصقين بالأرض بعدها، وتفقدين حُرية القرار بالترحال عبر البوادي، والتجوال بين الأمصار؟!

وقبل أن تجيبها بالإيجاب... سقطت فوقها قطرة من ندى... فانزلقت بها إلى ثغرة بسيطة بين الحصى والرمال، وبدأت تشعر ببعض الانتفاخ.

فضحكت من منظرها الغريب وقالت:

- أخيرًا سأستدل على أصلي ونوعي... أخيرًا سأتذوق طعم الحياة!

نظرت نبتة الصبار إليها بحزن وقالت:

- إنها بداية النهاية يا عزيزتي، فلا تتعجلي!

قاطعتها البذرة وقد أخذت بالانفلاق وهي تتخلص من غلافها... وبدأت تمد بالأرض جذورها بفرح:

- بداية أم نهاية... فأنتِ لا شك تدركين... تلك المتعة الفائقة التي تحلُّ بنا ونحن نمرُّ بتلك المراحل من التحول... مررتُ بلا شك، باللذة التي تحتكرين!

أجابتها نبتة الصبار مستغربة:

- لأجل هذا تستعجلين؟ إلى الموت بعد أن كنتِ تحتفظين بالحياة منذ آلاف السنين؟!

أجابتها البذرة وهي تمد سيقانها بافتخارٍ وغرور:

- أحتفظ بالحياة ولكن لم أذقها، لم أذق متعة التربة تحتضني بدفئها، لم أتمتع بقطرات الماء تسري بالخلايا والعروق... لم أتعرف على أنواع المعادن، والفيتامينات، ولا ثاني أكسيد الكربون ولا الأكسجين... ولا بدغدغة الفراشات تستثير زهوري البهية ولا بغناء الطيور... ولا

حتى بدفء الشمس عند الشروق تغمرني بالحنان... ولا بالنسمات العليلة تهزعَلَيَّ الأغصان... بكل بساطة لم أكن إلا بذرة تافهة!

تفاجأت نبتة الصبار من حماسها للحياة وقالت:

-ولكن أنتِ تدركين، بأنكِ بعد كل هذا ستذبلين وتموتين، وما الحياة التي تأملين، إلا بضع ساعات لا تتجاوز دورة يوم واحد... هل فهمتِ؟ ألا زلت بهذه التجربة تتمسكين؟

ابتسمت البذرة وقد أصبحت نبتة كاملة تحمل بين أغصانها الزهور، وبعض من الثمار التي عقدت وقد حوت في بطنها البذور... وقالت بفخر:

- إنها الحياة يا عزيزتي ... إنها بكل بساطة هي الحياة... وبعد أن كنتُ بذرة بسيطة وحيدة لا نفع منها... ها أنا ذا استمتع بها وأطعم وأنثر بعد موتي الحياة الجديدة محفوظة ليوم موعود.

ثم تابعت وهي تهتز بفرح، وقد شعرت بأوصالها ترتخي وببعض أغصانها الذبول:

- أنا لم أتذوق الحياة بكل عطائها فقط... ها أنا أترك بعضًا مني للأجيال القادمة، لأحمل لكل جائع بعضًا من طعام، ولكل عاشق بعضًا من الفرح والسرور... إنها الحياة بكل ما فيها أعيشها... فلا عتب بعد الذبول... ولا ندم مهما ضاع منا في بطون السحالي أو الطيور... ومهما جمع منا بالقبور.

سيبقى بعضنا مهما تعاقبت الأيام والسنون، يعيش الحياة ثم يعطيها... بكل ما تحمله من أمل وشقاء وسعادة وحُبور.

جنيف ٢٠٠٤

••••

المُرتل

يستيقظ الحاج منصور -وكما هي عادته منذ عشرات السنين- وهو يسابق خيوط الفجر الأولى ليتوضأ ويصلي الصبح حاضرًا...

من ثم يبدأ بتناول فطوره المعتاد، المُكوَّن من الخبز المُقطَّع بعناية، والمُغمس بالحليب الساخن، بعد أن يُذيب ملعقة من العسل المشمع في فمه، مستمتعًا بمضغه في هدوء، قبل أن يتركه ينساب في حلقه حلوًا دافئًا.

وكان يفعل كل هذا وهو ينشد القرآن... يسابق مرتله الصادر عن جهاز التسجيل خاصته، وقد وضعه في مكان ظاهر، على الطاولة المربعة الصغيرة المجاورة لسريره، في غرفة نومه المنمقة... فهو هدية من ابنته الغالية على قلبه، وتُعبِّر -نوعًا ما- عن نجاحها في عملها وغربتها... عن نجاحها في حياتها -حيث يحب أن يقاسمها إياه- وتعوِّض له عن فشل بعض من أولاده الذكور المؤلم!

وكان مع عاداته الصغيرة تلك، يستمتع بمشاكسة زوجته له، ويحرِّضها على توجيه الكلمات النابية التي يحب أن يسمعها من شفتيها في كل صباح!... إنه غذائه الروحي اليومي الذي لا مناص منه... ولا غنا عنه!

كان يطرب بتعليقاتها الفظة، وشتائمها وذمها له، وهي تعصر عباراتها عصرًا، وتشد على نهاية حروفها بنوتة متوازنة ومقصودة... وهو يبتسم ابتسامته الهادئة المعهودة، والتي بالكاد تظهر بياض أسنانه الاصطناعية، وعيونه الصغيرة وقد تكشفت عن حدقتين لامعتين مليئتين بالنشوة.

ينتظر انتهاءها من حملتها عليه، حتى يتناوب على شغل الصمت الحاصل من توقفها... في إثارتها من جديد!... بتسلسل متقن... وكأنه يريدها أن تستشيط غضبًا منه، لتصعد من قوة الهجمة عليه!

فهذا يريحه ويطمئن قلبه، على أنها رغم سنينها الأربعين التي قضتها معه، لازالت تتمتع ببعض الهمة، لتدافع بها عن نفسها!

كانت هذه اللعبة، وسيلته الوحيدة، لكي يُعبِّر عما يفيض في قلبه من ألم وشجون وأحلام... ويستطلع بواسطتها على درجة محبتها وتعلُقها به... وذلك من خلال رموز وعبارات خاصة متعارف عليها، تدل فيما تدل، على الحد الذي وصلت علاقتها به، من حُب أو ضجر أو رضا... ويقيِّم على أساسها نشاطه اليومي المعتاد! فيعرف مقربيه وجيرانه في السوق، ومن خلال مزاجه الصباحي وهو يفتح دكانه، إذا ما كان على وفاق معها أم لا!

وكان وقبل أن يغادر إلى عمله، يمرُّ بفرن الحي، لكي يشتري حاجته من الخبز الساخن ويعود به إلى بيته، فيجد والدته

المسنة تقف خلف الباب -تنتظر عابرًا من الحي لتطلب منه شراء أرغفتها المعتادة من الخبز- فيتجاهلها!

وقد يصدمها بكتفه دون أن ينظر إليها، أو يُلقي عليها التحية... وكأنه يؤنبها على اعتراضها وتذكيرها له، بأنها لا زالت حية ترزق... وبأنها تشاطره نفس المنزل في الطابق الأعلى منه!

إنها سلسلة من الرموز الغامضة تلك التي يتبادلونها في كل صباح، يحافظ كل منهما من خلالها، على الحد الأدنى من الوفاق!

فكما يؤلمه ألا تشاطره أمه فطوره أو قهوته، حتى لا تعترض زوجته وتهدد في فراقه، كانت والدته تسعد بأنها لامسته -ولو ببعض العنف- رغمًا عنها!

فلا يجد سبيلاً ليهرب من حزنه وألمه، سوى أن يرفع صوت القارئ وهو يرتل القرآن... حتى يخفي صوتها وهي تنادي لابن الجيران!

جنيف ٢٠٠٤

••••

الـمُـراهِـقـة

(١)

شاهدته جالسًا على أحد مقاعد مقاهي الرصيف في مدينة (مرسيليا) يحتسي القهوة... وقد أمسك بين أنامله بقلم يخطُّ به حروفه العربية بسرعة عجيبة أبهرتها!

اقتربت منه باسمة وقالت:

- أنت عربي؟ صحفي؟

نظر إليها من خلف نظارته الشمسية وأجابها:

- نعم... ولكن لست صحفيًا... أكتب خواطري!

جلست -دون أن تستأذنه- بالقُرب منه، وقالت وهي تجهد في اختيار مفرداتها العربية:

- من مصر؟

أجابها مبتسمًا:

- من الشام... تتكلمين العربية بلهجة مصرية... أنتِ مصرية؟

فرحت من إجابته، فلقد اعتبرتها قبولاً بها وإطراءً:

- لا... أنا تعلمتها من التلفيزيون.

ثم تابعت:

- أنت سائح أم طالب؟

أجابها:

- أنا عابر سبيل... سأغادر غدًا إلى ألمانيا عَبْر جنيف.

قفزت من مكانها وقالت:

- صحيح؟ أحلم بتلك المدينة، أتأخذني معك؟

تفاجأ من بساطة قرارها في الرحيل معه دون مقدمات... وتذكر مشقة وصوله إلى أول ميناء أوروبي، والسنين التي سبقتها للتحضير لحلمه، وسفره لمتابعة دراسته في الخارج... قال وهو ينهض ويرمي ببعض القطع المعدنية ثمن قهوته على الطاولة:

- هكذا بكل بساطة؟! دون أن تعرفينني؟

سبقته خطوات عدة ثم عادت باتجاهه ضاحكة فرِحة:

- أنت تشبه ممثلي السينما... دعني اتأملك... دعني أنظر إليك... لطالما حلمت بالرحيل عن هذه المدينة... أنتظر عابرًا ليس كأي عابر... أنتظر فارسًا ليس كأي فارس... أنتظر حُبًا...

وهي تقترب منه لتضمه تابعت:

- أنت حبي...!؟

أخذ بها من ساعديها وهو يُبعدها عنه بلُطف وقال:

- هل يُعقل؟!... فتاة جميلة وفاتنة ومثقفة مثلك، تفعل هذا؟... هل يرضى أهلك على تصرفاتك؟... كم عمرك؟

وهو يهزها:

- بأي صف دراسي أنتِ؟ هاربة من المدرسة أليس كذلك؟

صاحت به وهي تبكي:

- منذ عدة أيام وأنا أراقبك... أجثو هناك على المقعد الخشبي المقابل أنظر إليك... منذ أكثر من أسبوع... أتفهم؟ منذ أن تعرفت إليك وصافحتك، كنتَ تجلس بنفس المكان برفقة صديقك... وكنتُ أنا برفقة صديقته... لم تعرني اهتمامًا... لماذا؟

وهي تحاول أن تتخلص منه:

- لماذا؟... لماذا؟

وقف مشدوهًا وصامتًا مما سمع!

ثم تابع السير وهو ينظر إلى أرض الرصيف المرصوفة بحجارة صغيرة ناعمة وبراقة، وقال بصوت خافت يشبه الهمس:

- شيء جميل ونبيل أن نحب، ولكن ألا تعتقدين بأنك تتسرعين بالحكم على مشاعر تعتمد على المظاهر؟ أنتِ لم تعرفيني بعد!

نظرتْ إليه فرِحة، وقد اعتبرت مجرد أن يستعيد حواره معها، هو رضا وقبول بها:

- انظر مدرستي هناك ليست بعيدة، عَلَيَّ اللحاق برفاقي حتى لا ينتبه أحد لغيابي... أراك غدًا... باي... باي.

(٢)

في صباح اليوم التالي رنَّ الهاتف في غرفته، وسمع صوت صاحب الفندق يقول:

– صباح الخيرسيدي... يوجد فتاة جميلة تطلب الصعود لحجرتك... هل أسمح لها؟

أجابه بشيء من الامتعاض والخوف:

– لا...دعها تنتظر، سأنزل حالاً.

وما أن وصل صالة الانتظار بالفندق، حتى شاهدها تجلس هناك على أحد المقاعد، وقد وضعت إلى جانبها حقيبة سفرها!!!

ولمجرد أن رأته همَّتْ إليه مبتسمة، وقالت وهي تقبِّله على وجنتيه كما يفعل الفرنسيون، وكأنها تعرفه منذ زمن:

– أنا جاهزة... حقيبتي، هويتي الشخصية، بعض الكتب والنقود، ونظاراتي... انظر، عندي نظارات ملونه وجميلة مثلك... متى نرحل؟

أجابها والعرق يتصبب من جبينه ويبلِّل بدنه، وقد ذاب خجلاً أمام هذا الموقف الجديد، الذي لم يعهده من قبل:

– أنتِ مجنونة بلا شك... كيف تفعلين هذا؟ هل استأذنتِ أهلك؟

قالت بثقة:

– لا... أنا سأهرب معك، لقد تركتُ ورقة لوالدتي...

سأرحل عن هذه المدينة، إنني لا أطيقها... أنت أملي الوحيد... أريد أن أرحل معك؟

حاول أن يُلهي نفسه بطلب القهوة وفطيرة (كروصون):

- هل تأخذين القهوة معي؟... خذي فطيرة، لابد أنكِ جائعة.

وهي فرِحة أجابته:

- موافق إذن... متى موعد القطار؟

وقد عاد بعض الهدوء إليه، وشعر بأنه لابد سيسيطر على الموقف بحنكته المعتادة، فلقد تلقى الصدمة الأولى وامتصها بكل رباطة جأش، وعليه أن يبحث عن حل يُنقذها وإياه من ورطة لم تحسب لها أي حساب:

- يعني أنتِ جاهزة؟

ثم تابع بشيء من الصرامة ممزوجة بالنُّصح:

- أنتِ تعرفين بأنك ترتكبين خطأً كبيرًا بهروبكِ، لأنكِ تحت السن القانونية أولاً... وثانيًا لا يحق لنا ومن أجل لحظات حُب وجنون عابرة، أن نحطم قلوب والدينا اللذين تعبا من أجل أمننا، وصحة أبداننا وعقولنا وحصولنا على نجاحنا في الحياة... لا يصح أن نتجاوز قيمنا وأخلاقنا وعاداتنا، ونرمي بمشاعر الآخرين خلف ظهورنا، من أجل نزوة عابرة... أليس كذلك؟

عليكِ أن تتحلي بالصبر، وتفكري بعقلك، لتلجمي نداء القلب، فهو وإن كان صادقًا، لا بد وأن يُخطئ!

أجابته بامتعاض وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين بشيء من التحدي:

- هل أخطأتُ بحبي لك؟

قاطعها:

- ليس هذا... ولكن أحسني استخدام هذه المشاعر النبيلة... أحسني الحُب... ولا تسبِّبي به الأذى للآخرين؟

- أنت لا تحبني إذن؟

- ليس هذا... المقصود والداكِ، إخوتك، أصدقاؤك، مقربوكِ... لا يصح أن يكون حُبك سببًا في تعاستهم... هناك وسائل لإرضاء الجميع.

- كيف؟ ها... قل لي ... كيف؟

- سأتعرف إلى والديك... أعرِّفهم بنفسي... وأخطبك منهما... وهكذا يكون لديك الوقت الكافي لكي تتعرفي إليّ أكثر... ولكي أحبك أنا أكثر!

فرحتْ ببراءة بعرضه هذا... لأنها لابد كانت مترددة في حسم الأمر، واتخاذ القرار، ورأت فيه فرصة لكي تحتفظ بحبها ولا تخسر محبيها، وأُعجبت بكلامه الهادئ المليء بالدفء والصدق وقالت:

- تأتي حقًا لتتعرف إلى والديّ وتزورنا؟

أجابها والألم يعصر قلبه:

- هيا لأقلك إلى المنزل، لابد أنهم قلقون عليكِ... أعدك سأتصل لكي آخذ موعدًا وأحضر لزيارتكم... أعدك.

(٣)

هو يعرف تمام المعرفة بأن إيصاله لها إلى منزلها -رغم عواقبه الآنية البغيضة عليها- سيضعها في أمان...

وصدق حدسه، عندما جاءه صوت والدتها -العنيف له- من خلال الهاتف الذي وعدها به!

وما أن أغلق السماعة حتى شعر بنشوة لنصرٍ أراده وظفر به!

ذهب في اليوم التالي لينتظرها أمام مدرستها، وقد أحضر لها قطة صغيرة من الوبر الناعم!

ولمجرد أن شاهدته ركضت إليه، لترتمي بين ذراعيه وهي تضمه وتبكي:

- أعرف إنك اتصلت بهما... وبأنك تحبني... لقد أخذتُ نصيبي من التأنيب...

وهي تبتعد عنه وتمسح دموعها:

- انظر، لقد أعطتني والدتي خاتم خطبتها... ووعدتني أن أخطب لك متى انتهيتُ من دراستي!

أجابها وهو يخفي دموعه خلف نظاراته الملونة:

- انظري، لقد أحضرتُ لكِ هدية.

أخذت القطة فرحة بها وأجابته وهي تضمها:

- إنها أجمل هدية تلقيتها في حياتي... هاك عنواني... لقد حضرته لك...

وهي تمد يدها بورقة زهرية اللون...

ثم استدارت بعد أن خطفت قُبلة طبعتها على شفتيه... لتنضم إلى مجموعة من رفاقها -كانوا قد تجمعوا يترقبونها- حيث استقبلت بالتصفيق والتقبيل... ورحلت معهم وهي تشير له مودعة ملوِّحة بلعبتها رمز حُبها وتتراقص معها ببراءة الأطفال.

تساءل وهو يعود متجهًا نحو محطة القطار:

«لابد وأن الله يحب هذه الفتاة ويكرم أهلها... وبأنها لا شك ستعترف يومًا ما بحُسن صنيعي... بأن رددتها إلى أهلها، أصدقائها، إلى طفولتها ومراهقتها لكي تعيشهما على أكمل وجه...

وبأنه لا شك وبما يتمتع به من حكمة الكبار- وكما عهد نفسه دائمًا- ضرورة لابد منها لإيجاد التوازن المطلوب بين الخيروالشر.. وبأنه إذا ما سعى لحمايتها... فهو بذلك يحمي نفسه وأولاده يومًا ما».

تذكر قول والدته جوابًا على استغرابه لاهتمامها بفطور عُمال يعملون في ورشة لا تخصها:

«إن هذا لا ينتقص مني ولا من قدري وقيمتي... إنني أفعل هذا من أجلكم، من أجل أولادي... ليحميكم الله ويرسل لكم من يحن ويعطف عليكم... هكذا أسترد عملي».

ضحك وهو يحدِّث نفسه:

«لابد أن والدتها تشبه أمي».

جنيف ٢٠٠٤

••••

أضغاث أحلام (*)

(١)

«إنها الثالثة صباحًا»...

تنهد سالم وهو يقلب هاتفه المحمول باستغراب:
«هل يعقل بأن تكون ساعة الهاتف معطلة؟».

وهو يفرك عينيه بتوتر...

ثم عاد للنظر بهاتفه يتفقد الوقت ثانية، ليتأكد بأن الأضواء الفسفورية المنبعثة منه لم تخدع بصره:

«أجل إنها الثالثة... لازال الوقت باكرًا وباكرًا جدًا على الاستيقاظ! ولكن لي أكثر من ساعتين أتقلب في فراشي!... إذًا أنا لم أنم إلا بضع ساعات فقط!

هل يعقل أن تستمر الحال بي هكذا؟!... يجب أن أعود للنوم، حتى أعطي لبدني الوقت الكافي من الراحة، لمواجهة

* بدأت في كتابة هذه القصة في الساعة الرابعة صباحًا، وانتهيت منها في العاشرة من هذا اليوم، وقد كُتِبت على وقع الأحداث الأخيرة في العراق وفلسطين، وما يعم العالم العربي، من نقاش حول المشاريع المشبوهة، التي تخص مستقبله ومستقبل أبنائه، وما يجتاحه من احتقان كبير ينذر بالانفجار.

يوم جديد من العمل والمسؤولية!!!».

رمى سالم هاتفه بشيء من التذمر، معتبرًا إياه المسئول عمَّا يصيبه في كل ليلة من أرق.

ثم أخذ بأطراف لحافه لينقلب إلى الجهة الأخرى من الفراش، وكأنه يريد أن يدير ظهره للزمن، علَّه ينام لبعض الوقت يسترد به أنفاسه، لقد بدا عليه التعب دون أن يبذل أدنى جهد يذكر، وتساءل:

«أين كنت منذ قليل؟... وما هو آخر حلم رأيته قبل استيقاظي؟... يجب أن آخذ أطرافه الأخيرة، حتى أعيد ما انقطع منه، وكما هي العادة في كل مرة علَّني أغفو!».

فجأة... تناهى إلى سمعه صوت طفل رضيع يبكي، قادم من الشقة المجاورة، وذكَّره هذا الصوت بصوت آخر لطفل فلسطيني - مُمدد على حصيرة ممزقة مرمية بين أنقاض منزله المهدم- يبكي مثله!

ومع هذا الصوت حلَّت الصور المريعة للجرافات الإسرائيلية، وهي تتابع قضم ما تبقى من آخر بناء منهار، في قرية كاملة تم هدمها ومسحها بالأرض، وكأن زلزالاً قد أصابها، وقد تبعثرت الملابس واختلطت مع أواني المطبخ وفرش البيت بالأنقاض والأتربة.

صراخ الطفل يزداد حدة، وقد أخذته أخته الكبرى بين ذراعيها، وهي تحاول أن تلهيه بلعبة من القماش، وقد امتزج صوته مع عويل النساء وصراخهن، وهن يحاولن دون جدوى

انتزاع ما تبقى من أمتعتهم من تحت التراب:

«أين العرب؟ أين الأمة العربية؟ أين الحُكام العرب؟ أين النخوة العربية؟ أين شباب العرب؟ أين كرامتهم وشرفهم؟... أين أنتم؟...

ألا ترون ما يحدث لنا؟ ما يصيبنا في كل يوم من دبابات وجرافات شارون الملعون؟ هل خلت أمة العرب من الرجال؟ حتى لم يبق إلا النساء تصرخ وتستصرخ؟!»

ثم تابعت:

«إننا هنا باقون على أرضنا، لن تهزمنا لا جرافات (شارون) ولا دباباته ولا مجنزراته، ... وسنبقى صامدين بمساعدة العرب أو من دونها... هنا في العراء... في حر الصيف، أو تحت المطر والثلج... سنبقى صامدين إلى الأبد... وكل ما هدم لنا منزلاً سنبني بدلاً منه مئة منزل! وكلما أخذ «شارون» منا طفلاً سننجب عشرة أطفال بدلاً منه... جاهزون لقتاله ودحره والانتصار عليه».

(٢)

انقبض سالم على نفسه، وهو يستعيد تلك الصور الحزينة التي تبثها القنوات العربية صباح مساء، وشعر وكأن تلك المرأة -وهي تشير بإصبعها إليه- توجِّه له نداءها واستغاثتها مباشرة!

تمنى لو أن بمقدوره أن يتجاوز المكان والزمان، ويخترق الحواجز والحدود، ليفعل أي شيء يرد إليها الأمل... بأن صوتها قد وصل، وأن نداءها لن تذروه الرياح.

«ولكن كيف؟»

ردَّد سالم بخجل:

«كيف؟ وأنا ها هنا في غربتي وفي فراشي... وماذا تنفع مئات الخطابات والمظاهرات، وحمل اللافتات، والهتافات التي أجوب بها شوارع المدن الكبرى في الغرب، منددًا ومستنكرًا؟؟؟!!!».

هو يعرف بأنه لن يغيِّر من الأمر شيئًا، وبأن كل ما يُقال عن إسماع أصوات المظلومين أمام مباني الأمم الكبرى المتحدة منها أو المتفرقة لن يجدي نفعًا... حتى وإن قيل بأن كل ما يحاك هناك في وطنه الصغير أو الكبير يطبخ هنا في مطابخ الكبار!... وبأن الملايين مثله ليسوا أكثر من بضعة أرقام، تُضاف أو تُمحى من على اللوحة المُعدَّة سلفًا في إحدى قاعاتها الكبرى أو خلفها!

تذكَّر بأنه تابع هذه اللوحة بأرقامها المذهلة مباشرةً على الإنترنت، حيث تضيف ثانيةً بثانية كل مولود جديد على وجه الأرض، وتمحي كل مغادر إلى الدار الآخرة منها!... أما أولئك الذين يولدون ويموتون خارج هذه اللوحة، فهم لابد كُثر، ولا يُعرف عنهم شيء؟!

«مالي وهذه الأمور... وبماذا تعنيني... وأين كنت وكيف صرت؟؟؟»...

ردَّد سالم وهو يمسح العرق عن جبينه بأطراف الغطاء، ثم استدار باحثًا عن الجهة الأخرى الباردة من الوسادة ليدفن بها رأسه... وكأنه يحاول إبعاد أصابع الاتهام التي تتناوله بالذم والتقصير، ليجد نفسه مرة ثانية بين الأشلاء الممزقة والمحروقة لأخر عملية قتل جماعي في ذكرى عاشوراء بالعراق!

شعر وهو يتفقد تلك المشاهد المؤلمة، بأن وسائل الإعلام التي تبثها قد فقدت لا بد حياءها... فهي تتاجر بالصور الملونة للأحداث، لتدخل كل بيت دون استئذان، ولسان حالها يقول... خذه كما هو أو أتركه، وكأنه برنامج للتسلية؟! دون أدنى شعور بالمسؤولية!

وبأنه ولمجرد إقحامه في مشاهدة تلك الصور، هي إساءة لمشاعره، وتعدي على المساحات البريئة الباقية في نفسه، بقصد الإثارة ورفع درجة الغيظ والكره والاشمئزاز لا أكثر!

لأنه يعرف تمامًا، كما يعرف جميع من يقوم بنقل هذه الأحداث، بأن ما يدور هناك على أرض الواقع، لا علاقة له بتاتًا مع مقاومة شعب للاحتلال!

وأن تلك المتفجرات والمفرقعات والقتل الرخيص، ما هو -في بعضه- إلا تصفية للحسابات... وفي البعض الأخر وسيلة للتفاوض بين البقية الباقية من النظام القديم وقوات الاحتلال، على حل بدأت علاماته تظهر في خفة حِدَّةُ التوتر الأخيرة... وكأنهم انتهوا إلى تسوية ترضي الطرفين...

لا يهم بعدها، حجم ومقدار الثمن المدفوع من جثث الأبرياء وأحزان العائلات المنكوبة!

شعر بالخوف وهو ينتهي إلى هذه التفسيرات المقيتة، من أن تكون الأحداث -التي يشاهدها عن فلسطين- لتصفية المقاومة هناك، ما هي إلا تحصيل حاصل يقوم بها (شارون) لحساب ومصالح دول وأفراد اتفق فيما بينهم عليها!

وبأن الآلاف المؤلفة من القتلى والبيوت المهدمة، والأراضي المجرفة، والأشجار المقطوعة، ليست إلا جزءً من مخطط معد له سلفًا وباتفاق الجميع!؟

وبأن أجيالاً كاملةً من أُمته ومن كفاحها، وسنين طويلة من الاضطهاد، والاستبداد، والعبودية، والظلم التي تعرضوا لها في سبيل قضيتهم المقدسة تلك، قد ذهبت هباءً!

وبأن ما يراه وما يسمعه، ما هو إلا احتقار لمشاعره ومشاعر الملايين من هذه الأُمة الكبيرة، من المحيط إلى الخليج، لإذلاله وطعنه في كبريائه، وتحطيم حلمه بالعيش بكرامته وحريته وعزة نفسه منتصرًا.

وأن الانتصار لحريته وعزته وبقائه، إن هو إلا بالاستسلام والخنوع والقبول بالأمر الواقع... شاء أم أبى!

(٣)

انقلب سالم على ظهره متحاشيًا وسادته المبللة بالعرق، وقد أمسك بيديه أطراف الغطاء، محاولاً وبمساعدة قدميه أن يعيده إلى وضعه الطبيعي.

تأمّل نفسه وهو ممدد على السرير، وقد عقد ذراعيه... فرآها تشبه تلك الجثث الممددة على الأَسرة في المستشفيات، أو تلك القابعة في البرادات تنتظر دورها بالدفن، أو المحمولة على الأكتاف وقد طوقتها الجماهير المتوعدة بالانتقام والهاتفة بالشهادة!

ووجد بأن التشابه فيما بينهم قريب جدًا! حتى بالشكل، فهم ممدون وكأنهم نائمون، وعلى وجوه بعضهم ابتسامة... -خاصة تلك الطفلة الوديعة التي فقدت حياتها بقذيفة مدفع! فكان يصاحب ابتسامتها نور إلهي عجيب، وهدوء وسكينه تبشر بالنصر-... والفارق الوحيد بينه وبينهم، هو أنهم يرقدون دون عودة، في حين هو سيعود إلى الحياة!

«أي حياة؟»...

تساءل سالم ممتعضًا وهو يجادل نفسه بها...

وتابع وهو يتأمل سقف غرفته وقد ارتسم عليه بعضٌ من الخطوط الرفيعة القادمة من أضواء الشارع عبر شقوق نافذته:

«ما الفرق بين ميت وحي؟ وهل يشعر الميت بمن حوله؟ بحزنهم وكربهم؟... وهل يتأسف لفراقهم إذا ما شعر حقًا بهم؟... أم أنه ينظر إليهم ساخرًا لتعلقهم بحياة لا معنى لها إلا عندهم؟!... فهم يشعرون بها لأنهم يعونها! ولهذا فكل المشاعر، من ألم وتأثر وحزن، إن هي إلا خاصة بهم، وتتصف بهم على غير أي كائن حي على وجه البسيطة!».

تمتم سالم مبتسمًا وهو يسترجع صورة الأم القردة في إحدى حدائق الحيوان، وهي تنتقل مع وليدها الميت من شجرة إلى أخرى، دون أن تعي سبب سكونه وانطفاء الحياة فيه، حتى تعفنت جثته وتفككت لتتركها بعد أن فقدت الأمل باستعادتها، وكأنها لا تعنيها!:

«هل يا ترى شعرت بما نشعر نحن عند فقداننا لعزيز لنا؟ ولماذا لم تنوح وتبكي؟ لماذا لم تصيح؟ بل تابعت حياتها تأكل وتنام دون أن تتأثر بموته؟!...

وكل ما فعلته هو احتفاظها بشيء اعتبرته جزءًا منها، وتخلت عنه عندما لم تستطع الاستمرار بممارسة غريزتها كأم وحاضنة لا أكثر!

إذن الإحساس بالموت والخوف منه هي خاصة خصَّها الله بنا، بالوعي الذي منحنا إياه للحياة. وهذا الوعي هو الذي يعطي لحياتنا القيمة، ولعلاقتنا الاجتماعية المعنى، ولروابطنا الأسرية الاهتمام والتقديس.

والوعي ذاك هو الذي أعطى للكون مكانته، وللبشرية قوتها، وللمادة قيمتها، وللإيمان بوجود خالق يستحق العبادة والطاعة والتبجيل حقيقته... وجعل من الإيمان ذاك طريقًا إلى سلام النفس وهدوءها، بتقبل الموت كانتقال من عالم إلى آخر.. فبدت الحياة مرحلة من مراحل الخلق، ننتهي بعدها إلى الحياة الأبدية؛ كلٌّ حسب أعماله!».

(٤)

مال سالم نحو الجهة الأخرى من السرير وهو يقلب وسادته مستخدمًا وجهيها في التخفيف من حرارة وجنتيه، وأخذ بغطائه لكي يلفّه على نفسه كما تفعل دودة القز بشرنقتها... وتابع متحسرًا:

«بعد كل هذا، ما يهمني أنا من كل تلك الفذلكة؟... الحضارة والتخلف، الحرب والسلام، الحب والكره... ومالي ومال من يعترف بي ومن يصدق؟... ألا يكفي كل تلك السنين الضائعة من شبابي، أدافع عن حقيقة غير موجودة، وكأنني في حرب خرافية ووهمية مع طواحين الهواء؟!

ولِمَ عَلَيَّ أن أبرهن عن حقيقة نعيشها ويعرفها الجميع؟! يكفيني أنني أحترم الآخرين من خلال نفسي!».

أخرج سالم يديه من تحت لحافه ليدفع بعض جوانبه عن بدنه النحيل، وقد شعر وكأنه يحترق بداخله، ثم عاد إلى وضعه الأول، وقد استلقى على ظهره وهو يتأمل خطوط الفجر الأولى وهي تتسابق لتحتل الزوايا المظلمة من غرفته...

ثم تابع وقد بدا عليه الإرهاق:

«أنا والحمد لله، مؤمن ولا أخاف الموت، وهذه الأرض التي يتصارعون عليها، من أجل بناء يعمرونه وأرض يزرعونها، وثياب يخيطونها، ومجوهرات يتزينون بها... ما هي إلا إكسسوارات مستعارة لا نملكها... لأننا سرعان ما نتركها لأحفادنا وهم بدورهم لأحفادهم إلى ما نهاية!

والسعادة والتعاسة نبنيها بالتواصل والاعتراف بالآخر... بأننا أبناء هذا الكوكب الجميل الذي نعيش فيه، وقد اؤتمنا -من الله خالق هذا الكون- عليه وعلى ثرواته!

ونحن بعد كل ذلك لسنا أكثر من مسافرين، على ظهر هذا الكوكب في رحلة لا نعرف أين ستنتهي!

فالثقوب السوداء الكثيرة حولنا، تجذبنا إليها... وقد يكون عبورنا من خلالها، هو نفاذ إلى عالم آخر أجمل وأكثر رحابةً وسلامةً وأمنًا... أو ربما الدخول إلى بوابة الآخرة، حيث الحياة الأبدية... تقرها ما قمنا به من خير وشر...

وفي الحالتين نحن راحلون شئنا أم أبينا، نمتطي كوكبًا واحدًا صغيرًا لا غيره هو الأرض... فلنتعايش بسلام واعتراف ومحبة، فهو كبير بنا وبحبنا، وصغير بكرهنا وأنانيتنا.

وكوكبي ميلادي الذي يلمع كما تلمع مليارات الكواكب والنجوم، لا بد أن ينطفئ يومًا ما... كما انطفأ غيره... وأنا لست بآسف... لأنني جزء من هذا الكون بعتمته وضيائه... وهو قمة الوعي الإنساني الذي منحنا إياه الله وخلقنا لأجله!

وأجمل ما في إيماننا ما أوصانا به رسولنا الكريم، بأن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدًا... وأن نعمل لآخرتنا وكأننا ميتون غدًا».

(٥)

كانت الساعة قد قاربت السابعة صباحًا... عندما تناهى إلى سمع سالم ضحكات الطفل الصغير (ابن الجيران)، وهو يخبط بقدميه على صندوق التدفئة المركزية الخشبي... وخيل إليه وهو يحاول الاستيقاظ بأنه لابد قد سمع بكائه في منتصف الليل...

تساءل إذا ما كان ذهنه صافيًا بما فيه الكفاية، حتى يتذكر كل ما سمعه وجال بخاطره تلك الليلة، أم إنها لم تكن سوى أضغاث أحلام؟!

نهض سالم من فراشه ليستقبل أول خيوط الشمس الذهبية، ووقف خلف النافذة ينظر إلى الشارع وقد بدأ يمتلئ بالأطفال الذاهبين إلى مدارسهم... فتأمل خيرًا،

وشعر بدفء وسعادة عظيمة تجاهه، بأنه والحمد لله لازال حيًا، ويتمتع بالصحة والتفاؤل والسلام.

جنيف ٢٠٠٤

••••

السجن أرحم

من حكايات... خريف العمر - (١)

جلس إلى قُربي على أحد المقاعد الكثيرة، المتناثرة على أطراف إحدى حدائق الرصيف الطويلة، الممتدة على ضفاف بحيرة جنيف.

نظر إلي... ثم حاول التحرش بي وهو يداعب أحد أطفالي مبتسمًا:

- هو ولدك، أليس كذلك؟

أجبته بفخر:

- كما ترى!...

قال لي:

- لازلت شابًا لكي تنجب... ما الذي دفعك لذلك؟

ثم تابع قبل أن أجيبه:

- كنت مثلك فرِحًا بهم، كان لدي ثلاثة، أغرقتهم بالدلال والاهتمام، حتى أخذ كل منهم مكانه الذي يليق به...

ثم استدرك محاولاً إثارة اهتمامي:

- هل ترى الرجل الذي يجلس هناك (وهو يشير بإصبعه ناحية المقعد الآخر)، إنه حارسي الخاص.. هو يتبعني منذ

الصباح، إنه شرطي بلباس مدني، كُلِّف بملاحقتي بعد أن أطلقوا سراحي من السجن، بعد أسبوع من إقامتي فيه... لم تطل إقامتي هذه المرة!... قال لي القاضي: «كُف عن حماقاتك واترك السرقة وعد إلى منزلك، لدي شيء آخر أهم منك لكي أقوم به!».

التفتُ إليه مستغربًا... وقبل أن أجيب بادرني بالحديث وهو يضحك:

- لقد سرقت في المرة الأخيرة لوحًا من الشوكولاتة... لم يعجبهم الأمر... لم يكن كافيًا لكي يعيدونني إلى السجن لفترة طويلة!

ثم أردف هازئًا:

- آخرها كان لمدة شهر فقط، لأنني سرقت ساعة ذات قيمة من أحد المحلات الراقية!... لم يقتنع القاضي بذلك، لماضيي النظيف... فأطلق سراحي، وأمر بالعناية بي، وبدفع كامل مصاريف البيت، من إيجار وكهرباء، حتى أنه عيَّن لي امرأة لكي تنظفه وتعتني بي وبطعامي... وأمر لي براتب إضافي، وطلب مني ألا أعود لهذه الحماقات... كما قال!

ثم تابع وقد بدا عليه الحزن:

- كما ترى ليس لي أحد في الخارج... هناك استطعت أن اكَوَّنَ الصداقات، وكل شيء متوفر للتسلية... أجد من أتحدث معه، ألتقي به... أسمع منهم حكاياتهم... أقص لهم مغامراتي... هم ليسوا خطرين كما يتهمونهم!

إن السجن أرحم من هذه الحرية الفارغة التي لا ترحم...

لا يوجد من يرد عَلَيَّ التحية، أو يتمنى صباحًا أو نهارًا جميلاً، ولا حتى التمني لي بمساء طيب... أو لديه الوقت الكافي للثرثرة معي... وآخر زيارة لأولادي كان في أعياد الميلاد... أتتصور منذ أكثر من تسعة أشهر؟!... بالرغم من أن أحدهم يسكن المدينة نفسها... هل تصدِّق؟

علَّقتُ مستغربًا:

- معقول؟!

أجابني وهو يبتسم ساخرًا:

- كما ترى... وهذا الشرطي الذي يتبعني يرفض أن يتركني قبل أن أدخل المنزل... وقد اشترى لي منذ قليل الكثير من الأشياء، ولم ينسَ الشوكولاتة طبعًا... وذلك بأمر من القاضي!

ثم نهض وهو يرفع قبعته محييًا وقال:

- عَلَيَّ أن أذهب... لقد تشرفت بمعرفتك، وسررت بالحديث معك... يجب أن أذهب حتى لا يغضب مني، فقد نغصت عليه عيشه أكثر من اللازم... وداعًا.

وغادر وكأنه قد تحدث مع نفسه... لم يراني ولم يتعرف إليّ ولم يحدثني!

جنيف ٢٠٠٤م

••••

إنـه ولـدي البكـر

من حكايات... خريف العمر - (٢)

عرفته دبلوماسيًا خدم بلاده في ردهات الأمم المتحدة لأكثر من خمسين عامًا، كان يمر بي بحكم جيرته، لكي يفضي إليّ ببعض ما يشغل قلبه وعقله.

وإذا ما تردد في الدخول إلي تهذبًا، أصرَّ أن يريني نفسه لكي يلقي عَلَيَّ التحية، من خلف الزجاج، وهو يرافقها بابتسامته الرزينة.

عرفته متقد الذكاء، قوي العزيمة، فصيح اللسان... لم تغلبه الأعوام الطويلة في الغربة، من الجمع مع أي من المفردات الأعجمية، للغته العربية الفصحى التي يحب أن يتحدث بها.

يصر على إظهار حبه وتفانيه للعمل الذي كلف به... ولا يتردد من الإشهار بالوفاء لرئيسه وإعجابه بحكمته... والتغني بمزاياه النادرة في السياسة، بالرغم من إبعاده إياه عنها وانتدابه للعمل في الهيئة الدولية، بعد أن كان من أشد المقربين إليه!

هو لا يعتبرها قِلة وفاء من معلمه، بل هي ليست أكثر من ثمن لصراعات داخلية وتصفية حسابات من حوله ومقربيه.

عرفته حاملاً للهم الإنساني العام، والقضايا العربية، فلا يتردد من ملاحقة كل من يسيء إلى سمعتها أو يتهجم على تاريخها.

فأراه يدخل إليّ وقد حمل صحيفته منددًا بمقال قرأه هنا، ومشيرًا إلى رد عليه -قد خطه من قلبه ووجدانه وبحماس- هناك.

لم يلينه الإحباط الذي يواجهه عمن يدافع عنهم، وفي مرات أخرى لا يخفي امتعاضه مما يواجهه من موظف إحدى السفارات العربية يناقشه (الكومسيون)، الخاص به... إذا ما قبل بتمرير صفقته وقدمه على غيره!... فكان يصرخ غاضبًا مستهجنًا في بعض الأحيان وهو يقول: «هل يعقل هذا؟!... أين نعيش نحن، في سوق للماشية؟ لقد سحبت عرضي بالمناقصة، كنت أحلم بالمساهمة في عمل أتبرع بجزء من وقتي له دون مقابل».

لم أعرفه إلا قويًا... صارمًا... وابتسامته التي بالكاد تكشف عن بعض أسنانه، لا توحي بوجود رجل هش رقيق الجانب، قد تضعفه الأحداث، وتنال من عزيمته النوائب... إلا في ذاك اليوم... رأيته يحاول أن يطال بنظراته القلقة الحزينة أحدًا ما، بين الجموع الغفيرة التي ملأت صالتي، في حفل للاستقبال أقمته بمناسبة افتتاح جديد لعملي...

اقتربت منه مرحبًا وأنا أقدمه لبعض ضيوفي... ليفاجئني -بعد رده الدبلوماسي اللطيف- باعتذاره قائلاً:

- سامحني يا أخي... ولكن أفضل ألا أظهر كثيرًا!... دعني ارتوي بهدوء من عطشي برؤية حبيب وغال لم أجتمع به منذ سنتين!

ثم تابع وقد فاضت عيناه بلؤلؤة من دمع دافئ، تشبه تلك التي تنساب على جوانب شمعة حزينة:

- أترى ذاك الشاب الوسيم، هاك الطويل ذو البذلة الزرقاء، وشعره الأسود الداكن، الشاب الذي يتحدث بهدوء وتهذيب، أنظر كم هو رائع، وعلامات النجاح -تضيف إلى جاذبيته وسحر عينيه المليئة بدفء الشرق- بادية عليه! لم يستطع صفاء بشرة والدته السويسرية البيضاء، ولا شعرها الأشقر كسنابل القمح الناضجة، ولا عيونها التي تشبه زرقة المحيط الصافي، أن يظللوا سحنته العربية التي وهبها الله له!

ثم استدرك وبشيء من الفخر المصحوب بالأسى:

- إنه ابني... إنه ولدي البكر!... دعني أرجوك أن أكحل عيني برؤيته... إنني لم أراه لأكثر من عامين... وهو يسكن الطرف الآخر من المدينة، نسي أن له أب... نسي إنه ينتمي للونه ولغته وتاريخه الحافل بالمآثر العظيمة... وبأنه ومهما فعل فلن يستطيع إخفاء ما تصرح به ساقاه، ولا خفقات قلبه ولا حركات يديه!؟

ثم تابع وقد بدا عليه الإرهاق، وظهرت -مع انسياب العرق على جبهته العريضة- خطوط من زمن ولّى:

- اسمح لي يا صديقي أن ارتوي من هذه اللحظات، لكي آخذ زادي من هذه الطلعة وهذه الهيبة... ما شاء الله... ما شاء الله... إنه يذكرني بنفسي.

ودون أن يسمح لي بأي تعليق وأنا أستمع إليه مشدوهًا، قال وهو يرتجف من الألم:

- لا ولد له ولا يستطيع أن يعرف قيمته ولا مقدار غلاوته.

ثم تابع بحزن:

- انظر، لقد لمحني ولم يأبه لي... تصرف وكأنه لم يراني!... إنني لن أغضب منه، إنني لن أشكو عليه... هل يضام الفرد منا إذا ما أوجعه قلبه أم يداويه؟... إنه بعض مني وقطعة من فؤادي.

وغادر وقد ظهر عليه الكبر... يتمهل بمشيته ويتحذر، بعد أن كان يمشي مختالاً كأنه لم ينل منه القدر.

جنيف ٢٠٠٤

••••

أحـلام فتـاة شـرقيـة

(١)

فرحت ندى -الفتاة التي لم تتم السادسة عشر بعد- بالرجل الذي تقدَّم لخطبتها... لم تشاهده بعد، ولكنهم قالوا لها بأنه من عائلة كبيرة ومحترمة.

بهي الطلعة، مكتمل المواصفات وفي الثلاثين من العمر، ولأنها الأخيرة من تسع بنات، لم تشأ أن تبقى بمفردها، بعد أن سبقها الثمانية الأخريات إلى عش الزوجية، بنفس الطريقة: خطبة قصيرة بترتيبات عائلية... تفاهم على النفقات... لقاءات عدة بين الخطيبين خلال أشهر تحت عنوان الخطبة... ثم الدخلة.

وكان أخر من يُستشار في الأمر هي صاحبة العلاقة... حيث كانت تجري الأمور بطريقة روتينية!

ندى تنتمي إلى عائلة محافظة، كثرت البنات فيها، وكانت كلمة الفصل للأم، ولو أنه لا يبدو كذلك... حيث كانت ترتب جميع صفقاتها، بعد أن تدل الطالبين ليد ابنتها على مواضع الضعف لدى زوجها، حتى يتم الوفاق والاتفاق

بأسرع ما يمكن.

وهذه ليست خيانة كما يمكن للبعض أن يسميها... لا... لأن الأم لم تكن سهلة بتاتًا، ولا تيسر الأمر بالعادة، إلا للخاطبين الذين يحملون صفة الزوج، الذي يستحق ابنتها، ويكون قادرًا على الانضمام إلى عائلتها، كفرد منها يملك كل المواصفات المطلوبة.

ولأنها كانت صغيرةً جدًا، ولا تستطيع أن تميز بين رجل بالأربعين أو الثلاثين، ولا تعرف عن الرجال شيئًا؛ ظنت بأنها محظوظة به، فتركت أحلامها الوردية بلقاء فارس أحلامها جانبًا، وبدأت تعد عدتها للتأقلم معه كزوجة، وست بيت لا أكثر... فشؤون القلب لم يحن أوانها بعد!

لم يخبروها شيئًا عن ليلة دُخلتها، إلا في ليلة زفافها، فلم تأخذ كلمات النصح والتوجيه من اهتمامها الكثير، فلقد كانت ملهية مسحورة ببذلتها البيضاء، ومجوهراتها، وزينتها... وبالضيوف الذين كانوا يحيطونها بالأهازيج والتهاني والهدايا، وهم مبتهجون وفرحون بها...

ولم تفطن بعد هذه الليلة الصاخبة، إلى أنها ستغادر بيت ذويها إلى بيت آخر، وبأنها ستشارك زوجها -هذا الرجل جديدة العهد به- منزله وطعامه وشرابه وحتى فراشه!

هي لم تدرك بأن المرحلة التالية لحياة أي فتاة، تريد أن تنتقل من مرحلة حضانتها من قبل عائلتها، إلى مرحلة تأسيس عائلتها الخاصة، وتكون هي الحاضنة لها، تشبه

إلى حد بعيد الولادة الجديدة!... إنها انعتاق من ثوب لتحل في ثوب آخر... وانتقال من عالم إلى عالم آخر، تتعرف فيه ولأول مرة على عالم لا تعرفه إلا من خلال أحلامها... وقد لا تجد من كل ما كانت تحلم إلا اليسير.

وقد تجد أكثر من حلمها... لأن هذا العالم، هو عالم يعتمد عليها كليًا في رسم ملامحه من كل جوانبها... ويعتمد على مدى تقبلها أو رفضها أو انسجامها مع محيطها.

عالم ينجلي الحلم فيه عن الواقع... وينقلها من موقع المشاهد للحدث، إلى موقع الفاعل فيه، تشعر فيه ولأول مرة بأنها تملك مصيرها بيديها... بأن لها شريك في كل شيء، في الصالون، في المطبخ، في الحمام، وفي غرفة النوم والسرير!... وبأنه سيشاركها حتى الهواء وفنجان القهوة والوجبة الساخنة... أمالها... أحلامها... طموحاتها... وبأنه أكثر من هذا، سيكون الشريك الوحيد، الذي سيمنح وجوده وحبه وعطاؤه، ثمرة تحملها في أحشائها... تنبض بالحياة!

فهل كانت حقًا مستعدة لهذا الميلاد الجديد؟ والانتقال من الشرنقة التي كانت فيها، فاردة جناحيها بكل زهو وكبرياء، تصفق بهما نحو الحياة الجديدة التي تنتظرها؟!

هل كانت حقًا قادرة على خوض هذه التجربة الفريدة، بأن تكون مع زوجها شريكة في عش واحد... تبنيه... تزينه وتحميه؟!

لا يبدو ذلك... لأن ولادتها كانت عسيرة... وليلتها الأولى

معه لم تنجح قط!

ولأنها اكتشفت فجأة، بأنه اقترب منها أكثر من اللازم... وبأنه لامس من جسدها وروحها بعض مما حفظته لحبيبها وفارس أحلامها الموعود.

ولم تكن تعرف بأن هذا الزوج الذي تسكن معه، هو آخر المطاف من الحلم الذي عشَّش في خيالها سنين طويلة، وبأن زوجها هو حلمها... عشقها... حبها الذي يجب أن تسكنه فؤادها وقلبها وروحها، بعد أن تفرغهم من كل أحلامها!

فلا شريكَ للجسد... ولا مكان في القلب لاثنين!

(٢)

وككل الزيجات التقليدية أخذت الحياة مجراها، فمضت السنوات العشر الأولى من حياة ندى كلمح البصر، ولم تدرِ إلا وقد أصبحت أم لستة من البنين والبنات، ملأوا عليها حياتها وأخذوا منها جُلَّ وقتها... كانوا بالنسبة لها كل شيء.

وقد راق لها أن تصبح أُمًا لها وزنها وقرارها وكلمتها، وبأنها أضحت لهم الملاذ الآمن من كل مكروه، ومصدرًا للحنان.

لا يعيبها -وقد نضجت واكتملت خبرتها- من أن تمارس دور الطبيبة والممرضة والمعلمة، وقد امتلكت في جعبتها السحرية الدواء لكل داء، والحلول لكل المشاكل، فوق ما كانت تمتلكه من اهتمام وحب من زوجها وعائلته...

لم لا فلقد كانت بالنسبة للجميع زوجة مثالية.

فجأة وبعد أول وعكة صحية خطرة ألزمت زوجها الفراش، اكتشفت ندى بأن زوجها أصبح مُسنًا، في حين هي لازالت في ريعان الشباب... وبأن السنوات الخمس والعشرين التي تفصلها عنه، هي أكثر بكثير مما ادعاه عند الاقتران بها!

وهكذا بدأت تطفو على سطح حياتها، سيئات وعيوب لم تكن لتراها... وأضحت تشعر بوجوده ثقيلاً عليها، فلم تعد تحتمل صوت تنفسه يلج أذنيها كأزيز النحل، رغم افتراقها عنه في فراش خاص بها... إلا أن وجوده إلى قربها في غرفة واحدة أصبح لا يطاق!

حتى رائحته الذكية التي كانت تتغنى بها إلى حين أضحت نتنة، ولم تنفع كل محاولاتها باستخدام شتى أنواع المنظفات والعطور في إزالتها.

ويداه الناعمتان المدربتان على استثارة مشاعرها وأنوثتها، في جلب أقصى ما كانت تتمناه من الحنان والمتعة، بدتا وكأنهما أذرع إخطبوط تحيط بها وتطبق على أنفاسها... فلم تعد تحتمل أن يضع يده الوحيدة القادرة على الحركة فوق كتفها، أو على شعرها، مستأنسًا مداعبًا كما جرت عليه العادة!

خاصة بعد أن أدركت بأن ما أصيب به، سيلزمه فراشه وبيته، وستصبح ممرضته التي تسهر على راحته وصحة بدنه، بعد أن كانت ولأكثر من عشر سنوات جاريته ومربية

لأولاده، تذعن لكل مطالبه ورغباته ونزواته، التي تحبها والتي لا تحبها فيه!

أخذت تقسو عليه وتتمهل في تلبية حوائجه، وتتصنع عدم سماع توسلاته في استدراك أولادها يعبثون بالأدوية أو المدفأة أو أدوات المطبخ... كأنها أرادت أن تنتقم لنفسها من هذا الشر الذي وقع عليها وألزمها به، كل هذه السنين دون موافقة أو اتفاق أو إرادة أو حب!

وشعرت ولأول مرة في حياتها بأنها تكرهه وتتمنى موته!... وشجعها على ذلك زيارات ابن خالتها بحكم إشرافه على تطبيب زوجها... ففهمت إطراءه لها على هذه التضحية النبيلة، في العناية ببيتها وزوجها، على أنه تقرب منها، وطلب للمودة وعربون وفاء، لذكريات طفولتهم البريئة التي لطالما شاركته بها.

أخذت تعلل نفسها بالآمال... وترسم لنفسها حياة أخرى تمنتها... وحُب آخر لفارس أحلامها القابعِ ها هنا في مكان ما من قلبها وعقلها، ينتظر متحفزًا ومتشوقًا لمساتها الناعمة السحرية، لتوقظه من ثباته وتخرجه كالمارد من قمقمه!

أصبحت تتعمد الإخلال بموازين الدواء ومواقيتها... ترجو نهاية قريبة له وبداية لحياة أخرى لها.

ولم تدرك فداحة ما ترتكبه من إثم وخيانة، إلا عندما وقعت الكارثة وقضي الأمر وفارق الحياة.

وقعت عليها كلمات طبيبه الجارحة الثقيلة والمؤلمة

كالصاعقة، لتثخن الجراح الغضة فيها... والتي لم تندمل رغم بلوغها الثمانين من العمر... فهي لازالت تلاحقها!

لم تشفع لها توبتها ولا صلواتها، ولا التضحية العظيمة التي قدمتها لثلاثة أجيال من عائلتها.

بضع كلمات لا أكثر تقبع هنا في عقلها وقلبها ووجدانها... وتعود لتطن في أذنيها تذكرها بإثمها وموت زوجها وحلمها... (كنت معجبًا بك وأحترمك وأجلّك، لأنك امرأة تتمتعين بجمال وفتنة وعفة الملائكة... ولكن سرعان ما أدركت بأن الهالة الإلهية التي كانت تحيط بك قد انطفأت، بانطفاء من أشعلها بحبه ووفائه... وقريبًا ستدركين حجم الخسارة، بفقدانك الرجل الوحيد القادر على حبك، وحمايتك ودفع الأذى عنك، حتى وأن كان مقعدًا!).

وتساءلت في سرها رغم كل ما حلَّ بها من ألم: «ألا يحق لي أن أحلم وأتنفس وأحب وأعيش كامرأة؟... كأنثى؟!... – بكل بساطة – كامرأة أنثى؟!».

جنيف ٢٠٠٤

••••

ظـلال امـرأة

من منا لم تكن أولى حروفه التي خطَّها على قصاصة من ورق، أو مقعد أو جدار أو جزع شجرة... ولم تكن موجهة ومخصصة لفتاة أو امرأة؟

فرسم مشاعره منذ أن كان طفلاً... ومع أولى الحروف التي أتقنها... ونقل بخطوطه المتعرجة البريئة تلك الكلمة الدافئة الحنونة -التي تعود لفظها وسماعها (ماما)- على صفحات دفتر، لتستقر وقد أخذت لها شكلاً خاصًا بها، تكون وسيلته للدلالة عليها ومخاطبتها والتقرب إليها.

وكطفل صغير لم يتقن خطواته بعد، يدرك ثمن إتقانه وحفظه وتمرسه، في كتابة تلك الحروف الجميلة المعبرة، التي تستطيع أن تنقل مشاعره وأحاسيسه بصمت، إلى الطرف الآخر دون أن يراه أو يسمعه أحد... فيعطي لتلك الكلمات التي جمعت حروفه القدسية التي تستحقها.

فخلف كل خطوة يتقنها هناك الكثير من المشقة... حتى تبدو له تلك المسافة التي سيقطعها بين سماعه الكلمة الجميلة التي أحبها، وبين إتقانه لكتابتها، تشبه تلك المشقة التي حملته على تحمل أحجام الأشياء المهيبة التي تحيط به، حتى عودتها إلى طبيعتها مع تقدمه وتصلب عوده.

من منا لم يتخذ مما يحيط بنا من نجوم وغيوم وأمطار... وعصافير وطيور وأشجار... وكثير من أنواع الفراشات والورود والزهور، لنستدل بها عليها؟... فنلبسها من خيالنا أثوابًا فضفاضةً مليئة بالأنس والألوان، وكثيرًا من السحر المشحون بالموسيقى التي تطفق بها قلوبنا...

فنعطي ومع كل خفقة منها اللحن الذي يليق بها... حُبًا كان أم كُرهًا، حزنًا أم سعادة، رهبة أو خوف أو انتصارا.

من منا لم تكن المرأة هذا المخلوق الرائع، أصل أولى خواطر نخطها ويوميات نكتبها، ووسيلتنا لمخاطبة الذات... نعود إليها كلما شعرنا بحاجتنا إلى وجودنا قرب من نحب؟...

أُمًا كانت أو أختًا أو حبيبة أو زوجة أو ابنة... فنخاطبها بكلمات وسطور وفصول لا بداية ولا نهاية لها... دون قيود أو شروط.

نفرج عما يحتبس في قلوبنا وعقولنا من مشاعر، تعجز ألسنتنا عن النطق بها... وتكون ها هنا حُرة طليقة تصول وتجول على صفحات من ورق... تضمها بحنان وتحرص على حمايتها وإيصال ما بها لمن نريد وفي أي وقت نريد.

فنعود إلى أحضانها الوديعة بعد كل عثرة أو إخفاق، لنستمد منها العون والغفران والرضا...

ونتلمس السبيل إلى صدرها نستدرك العطف والحنان والأمان بعد كل خوف يصيبنا.

ونسترد من عباراتها المشحونة بالفرح بعد كل نجاح لنا... ذلك الشعور المليء بنشوة الانتصار والفخر... والذي لا يمكن لأي شيء آخر أن يحل مكانه أو يعوضه.

جنيف ٢٠٠٤

••••

حُب غامض

عادت إليه تذرف الدموع... متبرئة من كل أفعالها... مصرة على إدانته وتجريمه لكل ما حصل لها من ظلم، لأنه لم يمنعها عن نزوتها، كما يفعل كل الرجال مع زوجاتهم!

فلقد كان جدًا كريمًا... جدًا حنونًا... جدًا فخورًا بالحرية التي وهبها إياها، وبالأمان الذي منحه لها... ولم تكن أهلاً لكل هذا العطاء!... فلقد أحبها بشروط حبها البريء له... وأحبته ببراءة من يبحث عن طوق نجاة من ضيق وأَسر تعيشه.

فلمَّا أعطاها كل ما تريد ولم يبخل، فهمت عطاءه وحبه دينًا لها عنده، ثابت لا ينقضي بتاريخ أو بأجل (شيك مفتوح على بياض)، خاصةً وقد اكتشفت لديه، عرفانًا ساميًا لوهبها إياه طفلاً، هو كل ما رغبه منها ليقين حب أبانته ووفاء لعهد قطعته.

ولأنها شعرت بكونها كل شيء وأجمل شيء يحصل له في حياته، بعد تردد وخوف لقصص حب عديدة ووعود بالزواج باءت كلها بالفشل؛ لم تتردد في استنزاف كل ما وهبها إياه من حب، لتقع فريسة الطمع والأنانية... وتصل بها الحال حد الغرور بفتنتها التي لم تشعر بها وبقوة تأثيرها، إلا من خلال كلمات وهمسات رجل آخر، دخل حياتها صدفة، ليستقر بها

ويدفعها بأمانيه ووعوده الكاذبة إلى هجر زوجها، وتأليب كل من عرفه وأحبه من أهله ومقربيه عليه، بخلق القصص واختراع شتى أنواع الأكاذيب عنه، وعن معاملته السيئة، وسوء تدبيره وبخله، والطعن بأخلاقه ووفائه ومحبته لها ولطفله... علها تحصل على بعض المال، من متأخر ومتقدم ونفقة، تبني بهم حلمها الجديد الموعود.

وعندما نالت ما طلبته منه، بإصرار من له حق ضائع لديه... وبمساندة الأهل والقضاء والشرطة وأهل الفتوى والشيوخ، الذين لم يتوانوا من ذرف الدموع معها ولأجلها، لتخليصها من هذا الشر الذي وقع عليها، ومن ذاك الزواج الذي خطف منها شبابها وفتنتها ومستقبلها، وحرمها من أقل حقوقها... عادت إليه باكية شاكية تستدر عطفه وحنانه وإنسانيته، لإعادتها إليه، بعد أن تفقدت الحب الآخر والرجل الآخر ولم تجده!...

فلقد تنكر لها ولوعوده وحبه الكاذب... كيف لا وقد اكتشف بأنها قادرة على هجرانه بمهارة وخُبث... متسائلاً: «ما الذي يمنع من أن تفعل به ما فعلته مع زوجها، فلقد أخذ منها ما أراد وكفى؟!».

جنيف ٢٠٠٤

••••

وجهًا لوجه مع شـارون

(قصة لقائي به في أحد فنادق جنيف!)!

كنت قد أخذت لنفسي مكانًا على أحد المقاعد الوثيرة، في إحدى صالات الفندق الفخم، المطل على بحيرة جنيف، وكما جرت بي الأحوال كلما أحببت في تغير المشهد اليومي العام، والاقتراب أكثر من أجواء كبار النجوم والمشاهير والسياسيين في العالم -حيث تعج بهم جنيف كحال بقية المدن السويسرية الصغيرة منها أو الكبيرة- والذين لا يتوانون من مفاجئتك هكذا ووجهًا لوجه في الأماكن العامة، أو في المتاجر... أو وأنت تتنزه في الحدائق، أو تتسكع في البلدة القديمة (حيث تتركز فيها المتاحف الصغيرة وحوانيت التحف النادرة والسجاد الفاخر، ومراسم وصالات عرض اللوحات الفنية لكبار الفنانين).

ولِمَ لا أن تلتقي بهم بالصدفة، وقد أخذوا مكانًا لهم على أحد المقاعد في صالات انتظار الفنادق، فيخيل إليك وأنت تشاركهم الطاولة ذاتها -أثناء تناولك قهوتك- وكأنك في صحبة صديق قديم، فهم لن يتأخروا من رد التحية إذا ما وجهتها لهم، مصاحبة بابتسامة مصطنعة تنم عن الملاطفة

لك والشفقة –في بعض الأحيان – عليك، رفعًا لحيرة قد تجد نفسك فيها أو حرج.

كنت على استعداد تام أن يلتقي نظري بنظر وزير، أو رئيس دولة أو حكومة سابق، أو حتى أمير... وأن يلامس أطراف ثوبي ثوب نجمة سينمائية مشهورة، أو مطرب عالمي كبير، أو عارضة أزياء توقظك من سباتك –وأنت غارق بين سطور الجرائد– بروائح أشهر (بارفانات) الكون...

كل هذا كان من ضمن احتمالاتي وتوقعاتي، وكنت مُهيأً له، ومستعدًا أكبر استعداد...

أمَّا أن أجد نفسي وجهًا لوجه –وبكل بساطة– مع شارون، فهذا ما لم أكن أتوقعه أو أتمناه!

وخيل لي للوهلة الأولى بأنني ولا شك أمام شخص آخر يشبهه، لولا الهدوء المباغت الذي حلَّ بالصالة وانتشار رجال الأمن في كل مكان.

وبما أنني أعرف أهمية العيش في دولة ديمقراطية، تُحترم فيها حرية الفرد الشخصية، كنت واثقًا بأن وجودي ومتعتي في متابعة قراءة صحيفتي وتناول قهوتي، لن يعكر صفوها، تواجد أي كان ومن أي مرتبة كانت.

فجأة انتابتني مشاعر الغضب، واستيقظت لدي نخوة العربي الراغب بالثأر، لمئات الألوف من الضحايا الأبرياء، وبدأت صور البيوت المهدمة، وأشلاء الأطفال الممزقة، وعويل الأمهات الثكلى تنوح على زوج أو ابن وابنة، أو

نحيب شيخ عجوز يندب حظه ويشتكي جرف أرضه وقطع أشجاره، أو صراخ طفل استيقظ مرعوبًا وسط أكوام من الثياب، والأثاث المحطمة المتناثرة بين الأتربة والأنقاض، بعد أن اختفت كل معالم لبيت كان يحتضنه ولعبة من قماش كان يضمها...

آلاف من الصور المرعبة صاحبتها أصوات المدافع، وأزيز الطائرات مرَّت أمامي بجزء من الثانية...

خلت نفسي أعيش بلا شك كابوسًا، انعقد به لساني وتجمدت أطرافي، فها أنا ذا لا يفصلني عن الثأر إلا خطوة واحدة، لا تتعدى القفز من مكاني باتجاه المقعد الآخر!

عدت إلى صفحة جريدتي لأجدها بيضاء خالية من المعاني والصور!... أزحتها قليلاً لأتفقد الصفحة الرئيسية والعناوين... لأجده ينظر إليّ بابتسامته الساخرة نفسها التي صاحبت انتصاره في فتح الثغرة نحو الضفة الأخرى من قناة السويس، أو تلك التي ملأت وجهه وهو يحاصر بيروت... فلا بد قد قرأ ما في عيني من خوف، واستطلع ما في قلبي من غضب!

بادرني بالعربية وبلكنة خفيفة أضفت مسحة من البساطة على شخصيته القاسية:

- تقرأ جريدة عربية؟

أجبتُه محاولاً إخفاء توتري، وقد عقدت ساقي بشيء من

الحذر، وكمن لم يتعرف إليه:

- وهل تقرؤها؟

ثم تابعتُ بثقة:

- تريد استعارتها؟

أجابني:

- أنا بهكي أربي بس ما بعرف أكرا أربي!

(وحتى لا أزعجكم بلكنته وأحرفه المكسرة سأترجم لكم حديثه بلغة صحيحة)...

قال وهو يشير إلى صورته المصاحبة لحديث طويل عنه في الجريدة:

- العرب لا يحبون شارون أليس كذلك؟

- وهل فعل ما يحبب به؟

- لماذا وهل في تحرير الأرض من الاحتلال العربي والسيطرة الإسلامية لقرون، وعودة أرض إسرائيل إلى أصحابها ما يزعج ويسبب الكره؟... لماذا لا يقبلوا بحكمنا وسيطرتنا، كما قبلنا بحكمهم لنا وسيطرتهم علينا لقرون؟

أجبته وقد عاد بعض الهدوء إلي:

- دعنا من المهاترات الإعلامية والأكاذيب، واختراع القصص الخيالية العجيبة عن تاريخ ووجود وعودة اليهود إلى أرض الميعاد، وقل لي بمنتهى الصراحة... واختصارًا للنقاش: هل تصدق ما قلته لي؟... أي هل أنت مقتنع به؟ أو هو نوع من تسويق الدعايات الكاذبة التي اعتدتم على

تعميمها على العالم، وأنت تعرف حق المعرفة بأن هذا الموضوع لا يجدي نفعًا معي... لأننا نعرفكم ونعرف قصتكم، ولا تنطلي علينا أكاذيبكم... قل لي بمنتهى الصراحة: هل أنت مقتنع بما تتلفظ به؟

أجابني بتوتر واضح:

- وهل تشك به للحظة واحدة؟

- أنا لا أشك به... أنا لا أؤمن به نهائيًا.

- أنت تشك وتعترض على ما جاء في القرآن من قصص الأسفار ومعاناة اليهود؟ منذ أول خروج لهم من العراق باتجاه مصر.، وعودتهم منها، وتأسيس دولتهم وإمبراطوريتهم بحدودها الواسعة من جبال طوروس حتى اليمن... ألا تصدق وتؤمن بقصص الأنبياء؟... وعلى رأسهم إبراهيم جد العرب، وأنتم لا تذكرونهم وتُنهوا أسماءهم إلا بعبارات الرضا والسلام عليهم وعلى أرواحهم.

- وما علاقتك وعلاقة اليهود اليوم، بتلك الأسفار وبأولئك الأنبياء والرسل؟ لا أجد أي رابط بينهم!

بشيء من الغضب:

- كيف؟ من نحن إذن؟

- قل لي أنت من تكونون؟... وما الذي يربطكم بأرض وتاريخ لا تمتون إليه بصلة؟... قل لي أين ولدت؟ ومن هو أبوك؟ ومن أي بلاد أنت قادم؟ وما الذي يربطك بثقافة وأرض وشعب ولون، لوطن لا يشبهك ولا يتصل بك لا من

بعيد ولا من قريب؟؟؟

- أنت عنصري إذن وضد السامية؟

- نسيت بأنك تحاور عربيًا... انظر إلى نفسك في المرآة... وعد بالنظر إلي، وقل لي من هو السامي؟

ثم تابعت:

- ما الذي يربط روسي أو بولوني أو غجري من بقايا دولة الخزر الأسيوية، أو أوروبي، أو إذا شئت إفريقي من الفلاشا... وربما قريبًا، صيني أو هندي أو آسيوي!... وقد تعثرون على بقايا دم يهودي، لدى الهنود الحمر في أدغال الأمازون!... ما الذي يربط كل هؤلاء بوطن وأرض، لم يسمعوا أو يشاهدوها في حياتهم، إلا من خلال القصص الكاذبة والأساطير المفبركة؟!... هل تريد أن تقنعني، كما تحاول أن تقنع العالم، بأن كل هؤلاء هم الورثة الشرعيون لأرض خالية من السكان! خلقت لهم خصيصًا لاستقبالهم وضمهم في وطن واحد، وتحت دين وشعار واحد؟!

- إذن أنت ضد الديانات، وضد القرآن... ألم تحفظ شيئًا عن شعب الله المختار؟

- وأنت هل تصدق شيئًا منها؟ تريد أن تقول لي، بأن الله اختاركم على غير شعوب الأرض، وفضَّلكم عن جميع مخلوقاته؟!... بوضوح أكثر تريد أن تقول بأن الله عنصري، يميز بين مخلوق وآخر، وبين لون وآخر، وبين عرق وآخر؟!... أم أنك ولا شك تتحدث عن إله خاص بكم... ولا يربطه

بالشعوب الأخرى أي صلة؟! وهو على هذا على حل منا من أي اعتراف بكم، أو ضمان لأمنكم؟... لأن الله الذي أعرفه وأؤمن به، وتستشهد بكتابه (القرآن) وبقصصه؛ لا يقصدكم بتاتًا، بل قصد قبائل مضى عهدها وانقرضت من الوجود، كباقي الشعوب والقبائل التي ذكرها وأشاد بها، وخصَّ بعضها بالتفوق والسيادة حينًا، وبالرحمة أحيانًا، منذ خروج نوح إلى يومنا هذا...

ثم تابعت بثقة:

- وسرقة قصص اليهود وأسفارهم ولغتهم بعد الإضافات الكاذبة، والتحوير؛ لن تأتكم بأي نتيجة، ولن تمنحكم أي صك بالملكية لأرض ليست لكم، وثقافة لا تملكون منها إلا ما علق منها من أسطورة وخرافة.

- معقول أن يوجد من يفكِّر بنا مثلك، أم إنكم كلكم هكذا أنتم العرب؟ ألم تقنعك كل الشواهد التي عثرنا عليها، والآثار والأحجار المزخرفة المنقوشة في الأرض التي تنكر علينا ملكيتها؟

- قصتك تشبه من يردد كذبة على نفسه حتى يصدقها! أنا لم أر أي أثر لحضارة عبرية لكم، رغم كل ما تجهدون به أنفسكم منذ ثمانين عامًا للعثور عليه... لا لوح واحد بخطوط عبرية، لا زخرفة واحدة، ولا عامود، ولا حتى قماشة... كل ما عثرتم عليه، هي آثار لحضارات كنعانية وسومرية وفينيقية، لا تمت لأساطيركم الخرافية بصلة... حتى محاولاتكم

في العثور على أثر منها بين الكتابات الهيروغليفية باءت بالفشل... هل تستطيع أن تقول لي بأي لغة كنتم تتحدثون زمن التوراة، وبأي خطوط تكتبون؟

ثم تابعتُ مستدركًا:

- إن دلَّ كل هذا على شيء، فإنما يدل على أسطورة خيالية كُتِبت بعد خروج موسى من مصر بآلاف السنين، وأعدتم صياغتها على مزاجكم، لهدف معروف للجميع.

- يعني لا تعترفون بنا وبحقنا في الأرض والوجود؟

- لقد أضعتم فرصتكم الذهبية بالوجود بيننا في أمان وسلام، عندما قبلنا استقبالكم كلاجئين لحمايتكم من ظلم الغرب وبطشه وذبحه لكم... وهذا لم يكن عهدنا الأول في حماية وإيواء المظلومين والمضطهدين في العالم، فلقد بدأت منذ آلاف السنين، حيث كانت بلادنا ملجأ الهاربين من الظلم، يستوطنون بيننا ومعنا في أمان وسلام، فيأخذون منا ثقافتنا ويتزينون بألبستنا ويحتفلون بأعيادنا، ويدينون في بعض الأحيان بدياناتنا... ولم يدع أي منهم، بأي حق في أرض، أو تراث، أو ثقافة ليست لهم، كما تدعون... فلم يكفيكم سرقة الأرض وسرقة التاريخ، بل لجأتم إلى سرقة الثقافة والتراث العربي الفلسطيني، والادعاء بملكيته وعرضه في متاحفكم وسفاراتكم بالخارج، على أنه من ثقافتكم وتراثكم... وهل بعد كل هذا من افتراء وظلم؟؟؟

يبقى أن تقنع أولئك المتعصبين، الذين يعتمرون قبعاتهم

السوداء، بخلعها، واعتمام الكوفية ولبس الجلابية المزخرفة، وأن تعلمهم الدبكة... حتى تتم السرقة وتثبت صدق ادعاءاتكم الجديدة؟!

أليس هذا دليل آخر على افتقاركم حتى للفلكلور، ولمظاهر الاحتفالات والأعياد، والتي لا تملكون منها إلا رقصات قادمة من أواسط أوروبا الغجرية، لا يربطها بالشرق وسحره وديمومته أي رابط...

ثم تابعت ببعض الأسى:

- لقد أضعتم أكبر فرصة لكم في التاريخ، للعيش بيننا بسلام، حتى ولو صدقنا افتراءاتكم بالانتساب إلينا وإلى منطقتنا، بالاندماج معنا والعيش بسلام وأمان، بدلاً من تحكموا على اليد الوحيدة التي مدت لكم للعون بالقطع.

أجابني وهو يتلفظ بعبارات عبرية غير مفهومة:

- عندنا حق في كل ما فعلناه بكم... لا يوجد مكان لشعبين... إما نحن وإما أنتم.

- قل لي أولاً، وقبل أن ينتابك الغرور بالقوة التي تملكها: ألم تقرأ التاريخ؟

-أنا أقرأ التاريخ واحفظه ظهرًا عن قلب، ولهذا أنا أحارب، من أجل استقلالنا ووجود دولتنا وعودة اليهود إلى أوطانهم التي هُجِّروا منها.

- إذًا قرأت بأن التاريخ لم ولن يقبل الظلم... وبأنكم بعد كل هذا لن تشكلوا حتى ولا جزء من ثانية من دورته،

وسينقضي أجلكم عن هذه الأرض... لأنها هي من ستلفظكم منها في النهاية، كما لفظت غيركم وهو مصير كل غريب عنها.

- يبقى أن نترك على الجدران وبين صخور الهضاب والأشجار وحتى البحر، بأننا مررنا من هنا تاركين شاهدًا على وجودنا.

- وهل يأمل من يبني حضارة من الرمال، على شاطئ غصت به أمواجه المشبعة بالحرية والحب والوفاء لأهلها الأصليين، أي أمل في العثور على أثر؟ لا أظن ذلك!

تحرَّك بعصبية وهو يتلقى بعض المعلومات من مرافقه، ونهض مستعجلاً كمن فاته موعد ما، وغادر الصالة دون أن يلتفت لي أو يودعني، وكأنني لم أكن موجودًا، أو لم يجتمع بي.

وهالني ألا يكون لحواري معه، ولقائي به أي أثر، وكمن يصحو من حلم.

جنيف ٢٠٠٤

••••

صـقـر

يا إلهي... ها أنا ذا أخيرًا أسقط طريح ضربة مؤلمة وقاسية في هذا العش الكبير... ملتوية القدم محطمة الجناحين، وأنا التي كنت أفخر ببراعتي الهائلة في القفز والتنقل والطيران...

أستقبل الهواء الدافئ الصاعد من الوادي الكبير نحو الجبل، ليحملني عاليًا في الفضاء الرحب، لأترصد الأرانب والطيور، فانقض عليها بمخالبي القوية، ثم أعود أدراجي إلى عشي في أعلى القمة لأطعم صغاري.

هذه النهاية التعيسة البغيضة لا أحتمل رؤيتها، وأنا التي خضتُ أعتى المعارك، في جولات وصولات -للصراع على البقاء- مع الغربان والأفاعي السامة والعقارب والفئران... وكنت إذا ما ظهرت في الأجواء؛ أثرتُ الذعر من حولي، وأخفت كل أنواع الزواحف والطيور... حتى الأسماك الرشيقة لم تكن تفلت من مخالبي القوية رغم رشاقتها، وبعض منها كان بارع في التخفي بين الثغور...

وتُوجت لأجل هذا سيدًا على الفضاء، وملكًا على كل طائر، مهما كان قويًا، ولو كان من فصيلة النسور.

أين هيبتي وقوتي وعنفواني؟... وقد كانوا مدعاة فخر للكثيرين لأتصدر شعاراتهم، وأتربع في لوحات زاهية على

الأقمشة النادرة في الصالات الكبيرة وعلى جدران القصور.

كم أنا تعيسة وحزينة لمصيري هذا... أقبع أسيرة عيدان الأشجار الصلبة، وبعض من القش والريش، محاطة ببعض الحصى، في أعلى هذا الجبل الشاهق، لا قدرة لي على تحمل برودته... ولا على نظرات فراخ الصقور، ترمقني بريبة، بعد أن انهالت عليّ بأول ضرباتها من مناقيرها المدببة القوية، لأسقط هكذا ملتوية القدم مكسورة الجناح والخاطر، غيرقادرة على استعادة مكانتي... تحت إبط الصقر المهيب الذي حملني بين ريشه الناعم لشهور.

هكذا بكل بساطة أسقط كقملة ضعيفة فاشلة، بعد أن تصورت نفسي صقرًا تهابني كل أنواع الحمائم والعصافير.

يا لغبائي إذ برحت مكاني المناسب بين أقراني، أعيش في الأتربة حينًا، وحينًا امتطي ظهور الحيوانات الكثيرة التي ألفتها، أمرح برفقتهم، ومعهم صنعت لحياتي دورًا... وفيه الكثيرمن اللعب والسرور.

لم أكن أعرف بأن النظر عاليًا وامتطاء ظهور الصقور، سيلقينني إلى حتفي... هكذا مرمية كحشرة تافهة جاهزة للالتهام -من فراخ- كمقبلات على الفطور.

جنيف ٢٠٠٤

••••

وجـوهٌ أربعـة للقـاء حـار جـدًا

(الوجه الأول : سقوط الآلهة)

كان لقاؤها به على غير ما توقعتْ...

وبالرغم من غبطتها، وهو يأخذها بين ذراعيه، وينهال عليها بالقُبلات، في كل مكان تلتقي شفتاه به، إلا أنها كانت حائرة ألا تستطيع، من رده عن لهفته وحماسته غير المعقولة، في ملامستها في مواضع كانت حِكرًا لزوجها، فقد رفع الكلفة فيما بينهما، واستهتر بالخجل.

وكانت وهي تتملص منه بلطافة، والكثير من الحذر، حتى لا تخدش مشاعره العبقة بكل أنواع الشوق -خوفًا من أن تخسره ثانيةً بعد انتظار دام عشرات السنين- تحاول أن تتفقد بشيء من الحرص، تلك اللحظات القليلة الحميمة الدافئة من قصة حبهما الممنوع.

تفقدت مطاردته لها، نظراته الشبقة، ابتسامته المليئة بالأمل... وصوته الحنون الحالم بكل أنواع السعادة التي تشتهيها... رسائله العطرة المجنونة، المشبَّعة بكلماته الرائعة عن الحُب، وبكل أنواع القصص والأشعار، ومئات الورود، التي كانت تتساقط على شرفتها، في الساعات الأولى

من كل صباح!

تفقدت لقاءها الأخير به، قبل وداعها مغادرًا الوطن، يسعى خلف أحلامه الكبيرة... كلماته الأخيرة... وعوده الكثيرة... وبعض من رسائل، كانت تقل بها السطور والكلمات، بمقدار الزمن الذي أخذ يغرب موليًا وجهه، شطر الأفق البعيد ليغرق خلفه.

وعرجت بكثير من الأسى، على الأعوام الأخيرة التي خاضت بها حياتها، بروتينها المعتاد كأي امرأة: (زواج، إنجاب، تفرغ للزوج والأولاد، حتى ضمان الحياة الآمنة لكل منهم... ثم وفاة زوجها ورفيق عمرها فجأة بأزمة قلبية، تاركًا إياها وحيدة على أعتاب الخمسين).

ولم تنتبه وهي في لُجة بحثها عن تفسير لما يحصل لها... بهذا اللقاء الذي انتظرته... إلا وقد غمرها بجسده الدافئ... شعرت بقشعريرة غريبة تنتابها، وهو يلعقها بلسانه الخشن في رقبتها وأذنيها كقطعة سكر.

لقد استعجل على النيل منها، ولم ينتظر حتى تأخذ حقها منه، لتستعيد اللحظات الجميلة المنسية من قصة حبهما الطاهر، ومعها بعض العتب.

لقد لوَّث بمغامرته هذه ذكرياتها الجميلة، وكل الصور الرائعة التي جمعتها له في وجدانها... ومزَّق رسائله وأتلف كل الورود النضرة، وأحرق أجمل الكلمات التي حفظتها له في قلبها.

إنه وبكل بساطة يغتصبها وكما يفعل كل الرجال!

كل الرجال... إلا هو... لقد كانت تعتبره من صنف الملائكة، بل وأكثر...

لقد مجَّدته وأحبته وعبدته كإله... تمرح في معبده الرحب الطاهر المليء بالأفكار النقية بكل أمان...

لقد كان مثاليًا جدًا معها... وعفيفًا حد تمنُعه عنها، وهو في لجة عشقه ومراهقته وحُبه لها...

ولهذا... لم تفهم جراءته غير المعتادة معها... وسقوطه غير المتوقع عن عرشه العاجي...

ولم تكن تتصور بأنه تحول -بفعل الزمن- إلى رجل بسيط وتافه ككل الرجال.

جنيف ٢٠٠٥

••••

(الوجه الثاني : سقوط الأقنعة)

كان لقاؤهما بعد سنين طويلة من الفراق يشبه الحلم... وبالرغم من ترددها في السعي إليه بعد هاتفه المفاجئ، إلا أنها لم تتأخر من التقاط اللحظة الأليمة التي تفرَّقا فيها... متوجهًا كل واحد منهما إلى مصيره وحياته... معتبرة بأن الزمن قد توقف، عند الساعة السادسة مساء يوم الخميس، السادس من شهر أيلول، منذ ستة وعشرين عامًا... وبأن اليوم السابع من الأسبوع، هو اليوم الضائع من حياتها... والذي كان عليها أن تسترده لتتربع به على عرش السكون وترتاح!

كانت وهي ترتمي بين ذراعيه، تستغرب من هذه المفارقة العجيبة... أن تأخذ عقارب الساعة مسيرها المعتاد، بعد كل هذه السنوات ومن نفس اللحظة التي توقفت عندها!

ولهذا فهي لم تتوان لحظة واحدة، من إخراج عقدها البسيط المكون من حصاة كبيرة، حفرت عليها أولى الحروف من اسميهما... بعد أن لبست الصدرية المطرزة التي يحبها، وأسقطت شعرها على كتفيها العاريين، حتى يتسنى له رؤية وتقبيل (الشامة) علامتها الفارقة المحببة لديه.

وبالرغم من الجهد الواضح الذي بذلته، لكي تبدو أصغر سنًا كما تركها، إلا إنها لم تستطع أن تخفي خطوط الزمن

الواضحة على وجنتيها، والكثير من البقع البنية التي بدأت بالانتشار في كل مكان حول رقبتها، بالرغم مما أضافته عليها من مساحيق!

والشعور بالفرح العارم الذي لمسته في عينيه وهو يضمها إليه، لم يمنحها الجرأة الكافية للابتعاد عن صدره، بعد أن أسندت رأسها الصغير عليه، وقد طوَّقته بكلا ساعديها... خوفًا من أن تقرأ في وجهه شيئًا آخر غير ما تتمناه.

لقد بدا لها وسيمًا جدًا بهامته الرزينة، وأكثر جاذبية من قبل... وقد أضفت الخطوط البيضاء اللامعة على شعره الكث الأسود، الكثير من الوقار... فأطبقت عليه بشدة تنشد بعضًا من المؤازرة، وهي تستنشق عبير جسده الممزوج بعطره المعتاد، لتأخذ بها تلك الرائحة الذكية التي تعشقها، إلى لحظات خلوتهما القليلة، وتزيد من خفقان قلبها، وترعش مفاصلها كعصفور صغير وقع لتوه في الأسر!

تراءت لها صورة أول لقائها به -أمام مدرسته الثانوية- يستند إلى دراجته الهوائية، وهو يرمقها بنظراته الحنونة وابتسامته البريئة كالأطفال.

لم تكن تعلم بأن ابتسامتها الساخرة منه، سيكون لها ذلك التأثير السحري عليه، ليبدأ في مطاردتها، ويكرِّس بكل جدية قصة حب من طرف واحد!

لقد كانت بحكم تقارب السن فيما بينهما؛ تعتبره مراهقًا حالمًا... في حين تتمتع هي بكل عوامل التعقل والرشد، ولم

تكن لتجاريه في لعبته إلا مواساة وشفقة عليه... لأنها تدرك تمامًا بأنه يحتاج لأكثر من عشر سنوات حتى يبني نفسه فيها... في حين تكون هي، قد تزوجت وأنجبت واستقرت، وبأن قوانين المجتمع الذي تعيش فيه، لن تترك لها عُذرًا واحدًا، لكي تأخذ مبادرته بحبها، واهتمامه بها، على محمل الجد!

ولم تشعر بوقوعها في فخ لعبتها تلك، وبصدق مشاعرها نحوه... إلا بعد أن افترق عنها، تاركًا خلفه تلك الآثار البسيطة، المكونة من بضع رسائل، ومنديل، وهذا العقد البسيط المصنوع من خيط القنب، والمعلق عليه حصاة لامعة، كان قد تفنن في نقش حروف اسميهما عليها، وبعض من الورود الجافة التي احتفظت بها في صندوق صغير... كانت قد أودعته بيت والديها ولم تفرج عنه إلا منذ أيام.

ولهذا فلقد كانت تعتبر ظهوره ثانية في حياتها، هو الملاذ الأخير الآمن من الوحدة القاتلة التي تعيشها... بعد أن ترملت، وأخذ كل من أولادها طريقه في الحياة. وبأن عليها وقد وجدت نفسها في حضنه الدافئ، يوزِّع قبلاته العطشى عليها، هامسًا في أذنيها كلماته العذبة الحنونة، أن تستسلم له بكل جوارحها!

لقد آن الأوان لها أن تكشف عن صدق مشاعرها، وعظمة ذلك الحب الذي تحفظه له، وأن تتخلص وللأبد من أقنعتها المزيفة الواهية التي كانت تظهر بها أمامه.

ولكيلا يفهم صمتها على أنه استسلام من له دين عليها... بادرت في عناقه بحرارة وشوق وهي تلتصق به متكورة كجنين لم يغادر رحم أمه بعد.

جنيف ٢٠٠٥

••••

(الوجه الثالث : سقوط الحب)

أن تقبل دعوته، وتأتي إليه بقدميها لترتمي بين ذراعيه دون مقدمات... كان أكثر ما يمكن أن يتوقعه ويتمناه، من امرأة كانت أول من أيقظت في نفسه ذلك الإحساس العظيم بتحوله إلى رجل...

لقد كان لها الفضل الكبير بأن تأخذ بيده، وتعبر به من مرحلة الطفولة إلى الشباب...

وذلك الإحساس الكبير بالرجولة، والنشوة العظيمة التي تجتاحه، كلما حضرت إلى ذاكرته، كانت تصحبها صورة بُخلها الشديد بحبها وحنانها عليه... وكان يشعر بأنها، يمكن أن تهب كل رجال الأرض، ما يتمنونه منها... إلا له... ودون أن يعرف السبب!

ووجودها ها هنا، تضمه بعنف، وهي تسند رأسها الصغير على صدره بفرح -يشبه فرح عصفور تائه بالعثور على عشه، بعد أن أضاعه في رحلة طويلة وبعيدة في الغابة الكبيرة الواسعة، حيث تتشابه الأشجار والأعشاش والطيور-... قد لا يكون كافيًا للإجابة على أسئلته الكثيرة والمحيرة التي عششت في خياله سنين طويلة وبقيت دون جواب...

حتى رسائله وكلماته ووروده وهداياه الرمزية البسيطة، بقيت دون أدنى رد أو اعتبار أو خبر!

وكان يتساءل باستمرار، عن سر تعلقه بها، وتتبعه لها حد الهوس...

فلا يغلق له جفن قبل أن يودعها فراشها، ويعهد بها إلى أحلامها... بحيث أضحت أنوار غرفتها ودرفات نوافذها، هي دليله ومرشده، يضبط عليهما أوقاته، فيعرف متى عليه أن يستيقظ، ومتى عليه أن يدرس أو يصلي، ومتى عليه أن يتناول طعامه أو يشرب قهوته أو ينام!

حتى نزولها السوق وزيارة الأهل والأصدقاء، وذهابها إلى مدرستها وعودتها منها، وخروجها إلى النادي وعودتها منه، وأسفارها وكل تحركاتها المعروفة منه أو المجهولة عليه... كان لها نصيب كبير من اهتمامه وصُحبته ولو عن بُعد.

وكتاباته هي من علَّمته إياها وأشعاره والصور... فإذا ما أمسك الريشة ليخط بها ألوان الطبيعة والفراشات والزهور، أطلت بابتسامتها الوديعة من خلف خطوطها... وأقلامه إن كتبت أو نشدت أو غنت تأبى أن تكتب وتغني إلا لها... فلقد كانت بالنسبة له كل شيء.

وكان وهو يشعر بها تشمم بخار جسده النحيل المضطرب، مقبِّلة إياه في صدره وتحت إبطه كما تفعل الأم مع رضيعها! يسترجع لحظات الشوق والحب الجارف الذي سكن قلبه... وحلمه بها يداعبها ويلامس شعرها... وغيرته عليها من أبويها وإخوتها وأصدقائها... بل حتى من الكرسي الذي تجلس عليه، وطاولتها التي تدرس عليها... وملابسها

وأشيائها الخاصة جدًا مهما صغرت!

وكم من مرة... تمنى أن يكون فراشها الذي يستقبل جسدها في أحضانه... أو وسادتها التي تريح رأسها عليها... أو لحافها الذي تتدثر به... أو مطاطتها التي تلملم شعرها بها!

ها هي تتسلل بيديها الباردتين تحت قميصه لتطوقه بهما... ولتضمه إليها وتلتصق به أكثر فأكثر.

وبالرغم من النشوة العارمة التي اجتاحته، وهو يشعر بها تتلمسه بجراءة ولأول مرة في حياته... متحاشية حتى النظر إليه... وهي تهمس بكلمات متقطعة غامضة وغير مفهومة، إلا أنه لم يستطع التخلص من ذاك الشعور بالغبن طيلة سنين طويلة... فشل خلالها من أن يبني حياة ناجحة مستمرة ومستقرة مع أي امرأة أخرى!

لقد كانت بالنسبة له مُلهمته ومُعلمته وحبه الأول والأخير.

وتلك اللهفة التي بادرته بها... جعلته أسير وفائه القديم الجديد لحبه لها، فلم يشأ أن يجرح مشاعرها بإبعادها عنه، فلقد كانت -ومن حيث لا تدري- تحرق كل المراحل التي أعدها!

كان ينتظر منها تفسيرًا واحدًا ولو بسيطًا... وبعضًا من دفء الحديث الحميم الذي تمناه...

ولم يكن يتصور وهي تتلوى في حضنه كالأفعى، وتعضعضه بأسنانها المدببة، على ساعديه وفي رقبته، بأن حبها له كان رخيصًا جدًا، وبأنها بتسرعها عليه، تدفع بذاك الحب إلى الهاوية... إلى السقوط!

وبأنها لم تعط بالاً للحب الطاهر، ولا إلى كل تلك الصور الجميلة التي حفظها لها، كانت من خلالها هي أمه وأخته وخليلته وملاكه!

ولم تكن تدري وهو يستسلم إلى نزوتها، بأنها قد تحولت -ربما بفعل الزمن- إلى امرأة وضيعة ككل النساء.

جنيف ٢٠٠٥

••••

(الوجه الرابع والأخير: سقوط الشيطان)

كانت الدقائق الأخيرة التي تفصله عن اللقاء بها تشبه الدهر...

فهي المرة الأولى التي يشعر بأن الزمن يمكن أن يتوقف، وبأن عقارب كل الساعات التي ألفها يمكن أن تخذله!

تساءل وهو ينظر من خلال نافذته إلى الحديقة، كيف يمكن أن تكون بعد هذه السنين الطويلة؟

وهل سيتعرف عليها وتتعرف عليه؟

وهل عليه أن يخاطبها كما فعل على الهاتف باللغة الفصحى -بعد أن أحرجته باستخدامها- وكأنه غريب قادم من وطن آخر، وحضارة أخرى وثقافة أخرى.

هل نسيت يا ترى، بأنه قادم من الأحياء القديمة من مدينته، وبأنه مشبع بثقافتها وعاداتها وتقاليدها حتى العظم؟

وكيف عليه أن يقابلها ويستقبلها؟...

هل يجري باتجاهها كالعاشق المتيم المشتاق؟...

أم يحافظ على هدوءه وكياسته، ويحترم عمره ومركزه الاجتماعي الذي يتبوأ، وينتظرها في الداخل حيث هو؟

عندما أطلت هابطة من سيارة الأجرة، لتعبر البوابة الرئيسية متجهة نحوه وهي تقفز في مشيتها كما عرفها منذ ستة وعشرين عامًا... انتابه شعور عارم بالخجل والتردد... أعاده فجأة إلى الخلف، وكما كان -بنفس اللحظة التي افترق عنها- مراهقًا وخجولاً!

اندفاعها نحوه محيية مقبلة على الوجنتين وهي تضمه فرحة، أسقط عنه بعضًا من الحرج وقلة الحيلة التي وجد نفسه فيها... وشجعه على مقابلتها بالمثل مُرِّحبًا وهو يضمها إليه بشجاعة لم يكن يتصور بأنه يتمتع بها، خاصةً مع الفتاة (المرأة) التي استولت على عقله وقلبه، وجعلته رهينتها حتى اللحظة!

تساءل -وهي تدفن رأسها الصغير في صدره- عن السبب الذي دفعها لأن تتحاشى حتى النظر في عينيه؟...

هل قرأت بهما حيرته وتساؤله وعتابه؟... أم شعرت بفداحة خطأها باختيار طريق آخر، ورفيق آخر، وحياة أخرى بعيدًا عنه؟

أم أنها وبالتصاقها به، تحاول أن تختفي كالهلام عن ناظريه، لتبدو وكأنها ذابت في محيطها وأصبحت جزءًا منه ومن أثاثه؟

فلا يلحظ جهدها الواضح في الوصول إليه رغم احتذائها كعبها العالي... ولا النمش المنتشر على كتفيها حتى اختفاء شامته المحببة... ولا الشحوم التي استولت على خاصرتها

النحيلة... ولا شعرها المصبوغ وقد تكشف عن مساحات فارغة بين جذوره بعد أن كان كثًا ومثيرًا... ولا خطوط الزمن الغائرة في رقبتها وجبهتها ووجنتيها، والتي تشهد لها رحلتها في أتون العمر المغبر، بكل أنواع المغامرة الفرحة منها أو الحزينة... كانت خلالها... لشخص آخر.. وعائلة أخرى... لا تربطه بها أي صلة تذكر!

كانت تبدو وهي تخرج محرمتها لتمسح بعضًا من حمرة الشفاه التي تركتها على وجنتيه، وكأنها تحاول أن تذكره بها، وبالآثار التي تحملها من رائحته وعرقه، وبأنها ولمجرد الاحتفاظ بها إلى الآن، إن هو إلا عربون محبة ووفاء له، ولحبه وللحظات القليلة الحالمة التي شاركته بها.

تساءل وقد شعر بها ترتجف بين ذراعيه... بأن عليه أن يتصرف بشهامة الرجل الذي يحب بصدق مشاعر الطفل الذي عرفته فيه، وبأنه ليس من حقه أن يعتب أو أن يحاسب من كان مثلها ضحية العادات والتقاليد البالية...

وبأن كل النجاحات التي حققها في الحياة، لم تكن لأن يحصل عليها، لو أن القدر قد جمعهما منذ البداية تحت سقف واحد... ففي التحدي انتصار على المجهول، وفي الصبر والوفاء للحب العذري الطاهر الذي ضمهما، سلاحٌ فتَّاك قادر على إسقاط أعتى الشياطين!

وبأنه إذا ما أراد حقًا أن يكون وفيًا للمرأة التي صنعت -ببُعدها عنه- كل تفوقه، أن يغفر لها ويكافئها على صبرها وحُبها...

وبأنها في قسوتها عليه، وإبعاده عنها بالطريقة التي فعلتها، لم تقم بأكثر من ترجمة لخوفها وقلقها عليه وعلى مستقبله!

وكما تفعل الطيور عندما تقهر صغارها على الطيران، برميها من الأعلى لتكتشف قوتها وصلابة أجنحتها، ومهارتها في التحليق عاليًا لاستقبال الحياة... هي كذلك فعلت!

واستغرب وهو يغشاها بقُبلاته وهمساته ويشاركها ذوبانها في محيطها، عن تلك القدرة التي يمتلكها المُحب والعاشق الصادق بحبه، لكي يغفر لمن يحب كل عثراته وأخطائه...

وبأنه لم يستطع أن يرى بها -رغم كل شيء- إلا صورة عفيفة نقية لمن أحب...

فهي بعد كل هذا... لم تكن أكثر من انعكاس لصورته على صفحات الحياة الرقراقة النقية كالألماس... قاسية مثله، وشفافة مثله، وباهظة الثمن مثله تمامًا.

جنيف ٢٠٠٥

••••

التـؤام (*)

كان أمله عظيمًا أن يفترق عمن أحب، بعد أن عاش سنين عشقه الكبير لها، محملة بأجمل الأماني والوعود، كانت خلالها سببه الوحيد في الحياة.

فلقد خسر والديه باكرًا، ولم يعرف طعمًا لدفء بيت، أو حنان الوالدين، كما هي حال جميع أقرانه.

وعناية جدته وحنانها -على كفاءتها- لم تكفه دونها مودةً وحبًا وحنانًا منذ عرفها.

لقد كانت هي دفء بيته الذي أمله، وكبرياء والده الذي افتقده، وصدر أمه الحاني ولمساتها الرقيقة التي اشتهاها... وفوق كل ذلك... تلك الصداقة التي لم تحرمه منها، والصدق الذي لم تبخل به عليه، والوفاء الذي حافظت عليه، والذي لا يمكن لأي مخلوق كان، أن يهبهم له سواها.

لقد كانت كاتمة أسراره، حافظة للعهد الذي قطعته له... بل أكثر من هذا... إخلاصها للحب الكبير الذي كانت تبادله

* كتبت هذه القصة، من وحي الأخبار عن التلقيح الاصطناعي، واحتمال أن يلتقي أخ وأخت ويقعا بقصة حب كبيرة، ليكتشفا مؤخرًا بأنهما أخوة... وقد استبدلت صلة القربى بإخوة الرضاعة الدارجة في بلادنا.

إياه... فقد كان ثباتها في حبها له، رغم السنين الصعبة القاسية التي مرت بها -تعاند الجميع في قرارها برفض كل من تقدم إليها طالبًا يدها للزواج- يثير الإعجاب!

كانت خلالها قوية لا تضعف ولا تلين، ومدعاة لكل فخر واعتزاز وكبرياء.

ذلك لأنه كان يشكل بالنسبة لها، الوجه الآخر الجميل للحياة التي حلمت بها... ولأجل هذا انتظرته سنواته السبع الطويلة، تسانده في خطاباتها، وتقف إلى جانبه بكلماتها، وتحثه على المضي في علمه وعمله ونجاحه، فكانت ملاكه الحارس الذي لا ينام ولا يتعب، تتفقده في نهاره وليله...

لِمَ لا وهي تشعر -منذ أن التقيا لأول مرة- بأن كل منهما خُلق ويكمل -بطريقة ما- الآخر.

ولم يكن يتصور بأن هذا الحب العظيم، الذي يجمعهما... ممكن أن تفرقه أي من كوارث الأرض مهما بلغت إلا الموت!

بل لقد تجرأ على الموت وتحدياه، بوعد غريب لا يصدر إلا عن عقل وقلب متيم خبل!... وهو أن يدفن من يبقى حيًا منهما -بعد موت رفيقه- نفسه في القبر ذاته، وألا يفترقا مهما كانت الأسباب!... لأنه كان واثقًا تمامًا، بعدم وجود ما يمكن أن يقهر هذا الحب وينتصر عليه.

ولهذا لم يكن يتصور، وهو يقترب من الحي، الذي احتضن طفولته عائدًا من غربته، وقد تناهى إلى سمعه، زغاريد النساء يباركنها زفافها لغيره...

بأن هناك شيئًا آخرًا في هذا الكون، يمكن أن يبرر تلك الضربة القاسية المميتة، التي وجهتها له في صميم فؤاده، لتتركه أشبه بجيفة عفنة تتآكلها الطيور الجارحة بلا رحمة.

ها هو يشعر بمناقيرها المدببة الحادة تنهش به... وها هو يلمس تلك الجداول الحارة من دمه، وقد بدأت تتشكل وتأخذ طريقها بين الشقوق البسيطة المنتشرة، في كل زاوية من زوايا هذا الحقل النضر، الذي احتضن آماله وأحلامه وحبه، لتنتهي بها في مجرى للترعة أرحب، راوية الأرض العطشى ببعض منه.

تساءل وهو يقبض على رأسه بكلتا يديه، محاولاً أن يمنع تلك الأصوات الشنيعة عن أذنيه، إذا ما كانت خيانة من أحب، هو ذاك السلاح القاتل الذي لم يحسب حسابه!

لقد فهم أخيرًا سبب انقطاع أخبارها المفاجئ عنه، بعد رسالتها المقتضبة الأخيرة له، وقد أنهتها بعبارات التمني بالنجاح والتوفيق لأخ عزيز لطالما حلمت به!

والأصوات المضطربة الصاخبة التي بدأت تصل سمعه من جمع غفير تحلقوا حوله، -لم يلتقط منها إلا عبارات لأسى لم يتوقعها- تتأسف على شبابه الضائع، في حب فتاة لم تكن سوى أخت له بالرضاعة!

هابته تلك الكلمات الباردة، وقد شعر بها تسعى إليه كالأفعى، لتطوقه وتزيد الخناق عليه، متأهبة للسعه مع فيض آخر منها أشد أذى وإيلامًا.

وتذكر -وقد شعر بالأرض تهتز به، والجدران تتقلص حوله- الصورة الوحيدة التي علقت في خياله وذهنه، لقُبلة وحيدة أهدته إياها بعد أن طبعتها على جبينه وهي تقول: «هذه لأخي الوحيد الذي أُحب»!

وتحسَّر ألا يفهم سر تلك القبلة وتلك الكلمة إلا متأخرًا.

جنيف ٢٠٠٥

••••

ممبا

«أهديها إلى كل أم لم تمنحها الحياة فرصة حمل طفلها في أحشائها لتكسب بعضًا من الاحترام الذي تستحق لأنها لم تكن -بكل بساطة- سوى رجل! ... إنها هو (ممبا)»

إلى روح والدَيّ اللذان زرعا قدرًا كبيرًا من الحنان والحب والشعور بالمسؤولية في نفسي، حد نمو جنان باذخات بشتى أنواع المشاعر الطاهرة المقدسة، ليس أقلها الشعور بالأمومة... أهدي هذا العمل.

أن يبقى طفلاً وهو على مشارف العشرين من العمر، يتلمس الحنان والاهتمام منها، وكأنه لم يبرح طفولته بعد... هو أقل ما يمكن أن يفعله، ليحافظ على توازنه وتسامحه وعنفوانه!

كيف لا وقد لازمته أشهره التسعة الأولى، تترقب مشقته في الانشطار والتكاثر من عَلَقة بسيطة، إلى مئات الآلاف من المليارات من الخلايا النشطة الذكية، تسعى كل واحدة منها لتأخذ مكانها الصحيح الذي رسم لها!...

فيشعر بها تتابعه بمجساتها الخفية، تتفقد بقلق وفرح

كل ثانية ولحظة من لحظات خلقه، وكأنها المسئولة عن جيناته وخلاياه -على كثرتها- خوفًا من أن تتعثر أي منها أو تضيع، في زحمة تلك المهمة المهيبة، التي سبقت أول خفقة من خفقات قلبه!

فيراها لا تفارق مخدعه البرزخي، تشاطره طعامه وشرابه وتعلمه ولهوه، ولا تتركه إلا وقد استسلم نائمًا على أنغام هدهدتها الإلهية الساحرة.

وعندما استرق أولى نظراته الزائغة من خلف جفونه المرهقة، محاولاً تفحص محيطه الجديد، كانت هاهنا تستقبله بكل نعيم من ساهمت في وجوده... فيشعر مثلها بعظمة ورهبة تلك اللحظات السامية...

لِمَ لا... وقد كان كل منهما سببًا في وجود الآخر.

وصدمته الأولى في ملامسة العالم الغريب الذي حلَّ به، لا تقل أهمية عن تلك التي شاركته فيها، وهو يعب لأول مرة من نسيم الحياة، ويصرخ أولى صرخات ميلاده... وجوده.

وتلك القشعريرة الغريبة التي انتابتها شعر بها. وكذلك تدفق المياه الباردة، وهي تتناوب عليها لتغسل بدنها النحيل، من رأسها حتى أخمص قدميها، بعد أن كانت غارقة بالعرق.

لقد كانت تلك اللحظات الرائعة، بمثابة الميلاد الحقيقي لها -مثله تمامًا- والتي أضحت تؤرخ وتحتفل بها لا غيرها.

ومُتعته برفقتها تشاركه نطقه لأول حروف الأبجدية، وبروز أولى أسنانه، لا تعادلها متعة كفيّها الوثيرين، وهما

تتلقيانه بحنان -في أول محاولة له للوقوف على قدميه- قبل أن يصطدم بالأرض...

لقد كانت خارقة جدًا لأنها استطاعت إيقافها -وهي تندفع بسرعة نحوه- وإعادتها إلى نصابها وتوازنها ليسعد بخطواته حرًا طليقًا كما يفعل الكبار.

وحضنها الدافئ... كان حصنه وملاذه، يستجدي فيه الراحة والأمان، بعد كل رحلة ومغامرة... بل كان وفي أحيان كثيرة، هو بيته الذي يسكن إليه، ومدرسته التي يتعلم فيها، وفراشه الذي يغفو فيه، على أنغام الموسيقى الوحيدة التي ألفها، وهو يركن رأسه الصغير بجانب إبطها الأيسر.

فكيف لا يكون معتدًا وفخورًا ووفيًا لها؟ وقد شهدت مرضه وصحته... حزنه وفرحه... تعثره ونجاحه... كبوته وانتصاره؟

فكانت أُنسه في وحدته... وأمانه من خوفه... ومصدر إلهامه في تأدبه وخلقه وتفوقه... فلم يعرف بوجودها قُربه عوزًا لمعرفة أو مشورة أو نصيحة.

وكانت ماثلة دائمًا في دعمها المعنوي له، تقيه فاقة العثور على حل لأي أزمة عاطفية كانت أو مادية.

وإذا كان من حسرة تغشى قلبه ووجدانه، كلما أراد أن يناديها بماما، فهي عجزه عن النطق بها ليستعيض عنها بعبارة «ممبا» مزاوجًا لاسمين في لفظ واحد، لأنها لم تكن -بكل بساطة- سوى أبيه!

وتمنى وهو يراه يجهد في دفعه متألقًا ومتفوقًا وناجحًا في الحياة، لو كان بإمكانه أن يزيح الجنة ليضعها تحت قدميه.

جنيف ٢٠٠٥

••••

القيامة

ها هو أخيرًا يجلس وجهًا لوجه أمام ملفاته الكثيرة التي قضى عمره كله يجمع بها...

لقد جاء اليوم الذي ينتظره، لكي يلملمها ويُخرجها من مخابئها الكثيرة المتفرقة!

أكثرها مشقة... تلك التي تخفت كلماتها، واختلطت حروفها، مع حسابات بيته ومصروف عائلته على شحتها...

إنه يدرك أخيرًا، صعوبة استعادتها من بطون تلك الصفحات البالية، وقد حرص ألا تكون سهلة التفسير، مكتملة المعاني والمقاصد عمن يبحث عنها، خوفًا من الملاحقة أو العقاب.

لم يكن يدرك، بأنه سيقع في فخ صنيعه، وسيتعثر في جمعها وفك طلاسمها العجيبة، ومعانيها الغريبة وكأنها من فعل غيره... خاصةً بعد أن ضعفت حدة خطوطها، وتقطعت أوصال حروفها، حتى لكادت تشبه تلك التي تُكتب بالحبر السري، تحتاج لخبرة خبير، وعين بصير، لقراءتها وترجمة معانيها... لقد أضحت باهتة ضعيفة بفعل الزمن، ولكنها أبدًا لم تخسر قوة الحق الذي تعنيه!

وذاك الذي يضم أكثر عدد من الصفحات، والأحداث، والكلمات، والنقاط، وإشارات التعجب والاستفهام كان أكبرها.

وحبره الذي خطَّ آخر حرف من حروفه، ودوَّن مجموع آخر حساباته، بأرقام وصلت إلى خانة مئات الآلاف لم تجف بعد!

أجل ها هو يجلس أخيرًا وجهًا لوجه، أمام غُرَمائه ممشط الشعر، حسن الهندام والمظهر عطِر الرائحة... ونظراته القلقة المتحفزة، وهي تجول بين عناوينها المثيرة، التي جمعت بين أسماء كثيرة لمهن ومراتب وألقاب، ما كان ليحلم باجتماعها هكذا في مكان واحد ورزمة واحدة، وعلى طاولة واحدة، وبحضور قاضٍ عادل، لا تشوبه شائبة في قراره أو حكمه أو إنصافه.

ومراجعته لتلك العناوين والأسماء التي تتصدر تلك الملفات، عادت به سنين طويلة للخلف، تصل حدود وعيه وفهمه وإدراكه للحياة، ومعانيها الكبيرة المقدسة في الحرية والعدل والمساواة...

إنها تضم وبمنتهى البساطة تاريخ حياته كلها! البعض منها ليس غريبًا عنه ويتصل به وبوجوده.

ولكن... ليس له الخيار، فعليه ألا يستثني أيًّا كان، من هذه المواجهة الحتمية التي لابد منها!

ووجد نفسه -وهو يتفحصها- واقع في حيرة كبيرة لا يُحسد عليها، في اختيار الأهم منها لتتصدر مرافعته، وتكون

مركز شكواه، ومدخلاً لمحاسبة المسيئين له وأعدائه!

وتساءل وهو في خضم هذه الحيرة، من أين عليه أن يبدأ؟ هل يبدأ بالخباز؛ الذي يستولي على بعض من جودة ووزن رغيفه؟

أم من عامل النظافة، الذي يقضي وقته في تفحُص القمامة، بعد أن يمزق الأكياس النظيفة عنها، بدلاً من جمعها وإبعاد أذى رائحتها والأمراض التي تحتويها؟

أو ببائع المازوت، يبيعه ماءً مغشوشًا بدلاً من الوقود؟

أو ربما يبدأ بموظف الضرائب، الذي حضر بكل هيبته وسُلطته المعطاة له، لكي يبتزه ويسرق بعض من أثاثه أو قوت بيته، وكأنها ديّة وواجب عليه أن يلتزم بدفعه لقاء التأجيل والتأخير؟

أو ذاك الشرطي الذي يرافقه، ينتظر أن يقاسمه غنيمته؟

أو مختار الحي الذي باع شرفه ليشهد زورًا بتمنعه عن الدفع، لتكون مطية له لكسب بعض من الدراهم الحرام؟

أو لماذا لا يبدأ برئيس المخفر؛ الذي احتجزه ظُلمًا ليومين يبحث عن حجة مقنعة تدينه، ومن ثم إحالته للقضاء وبعدها للسجن بسبب تهمة زور كاذبة، دون أن يتحقق منها... لمجرد أن يرضي حاجة زوجته أو زوجة أحد المسئولين، بتصفيف شعرها بالمجان عند صاحبة الدعوى!

إن مجرد تذكره لتلك التهم البسيطة تصيبه بالغثيان ويشعر بحاجته للتقيؤ... فكيف به الحال إذا ما تفقد ما هو أكبر من هذا؟!

بدأ بملفات الظلم والقهر التي أودت بمستقبل جيل كامل من أهله، وأصحابه، ومقربيه لمجرد الشبه، أو الشكل (كحمل اللحية)، أو حمل اسم يدل على دينه، أو طائفته، أو تجاوبًا مع تقارير كُتبت بأيدي جهلة حقودة، تتلمس المنفعة الشخصية الضئيلة، أو عبارات الإطراء...

فنرى النجوم تتكاثر فجأة على أكتافهم، والألقاب تزداد بسرعة البرق على أسمائهم... والمقاعد الوثيرة الحديثة تستبدل في مكاتبهم، وتشاد الدور والفِيلاّت الفخمة، ويمتد العمران حتى يطال أعنان السماء، وتتوسع الحانات والمراقص ودور القمار، وتتحول فتيات الغجر من أعمال الزراعة في الحقول... إلى عاهرات في القصور!

لما لا يبدأ بمعلمه الذي صفعه بقوة على إحدى وجنتيه عندما كان صغيرًا، فسبَّب له الطرش في إحدى أذنيه لمجرد أنه كان سهل الوصول، شديد التأدب حد الخنوع، ولا يملك خلفه من يقدر على محاسبته أو يدفع الشر عنه؟

أو ربما بمدير مدرسته، الذي كان يسرق مخصصاتها من وقود التدفئة ليحرموا منها، معتمدين عمن يتكرم من أولياء الطلاب بها، فتقدم أولادهم لينالوا نصيبهم من الدفء على قدر مساهمتهم، ويحرم الآخرون منها؟

أو لماذا لا يبدأ بالقابلة القانونية (الداية) التي أشرفت على ولادته، فأعطبت بإحدى حركاتها الطائشة إحدى مفاصله، ليبقي طوال عمره يحمل ألمها وكأنها عاهة خلقية وُلِدت معه، فكانت سببًا في تأخره عن تحصيل النجاح المطلوب كأقرانه؟

أو بكل بساطة يبدأ بأُمه التي أنجبته، وأبيه الذي كان سبب وجوده، وتقصيرهما في تأمين أقل ما يمكن من الحماية والتوعية والعلم له ولأخوته، فكانا سببًا في حرمان اثنين منهما من متعة المشي، لإصابتهما بشلل الأطفال، رامين العذر بتوكلهم على الله؟

أو سيكون من الأولى له، أن يحاسب حبيبته أولاً، بعد أن تركته صريع حبه المجنون لها، فاقدًا لأي ثقة بالجنس الآخر، فأودت -خيانتها لحبه الطاهر- به إلى هاوية العزلة والشك!

أو ليبدأ بزوجته، فعدد الحجج السيئة المحسوبة عليها كثيرة.

أو لِمَ لا أولاده أو أخوته أو جيرانه أو بائع الخضار... أو الحلاق أو البقال أو بائع الحليب أو طبيبه أو محاميه أو النجار؟!

أو الحجارة المتناثرة في السهول والوديان... والطيور على كثرتها... ولِمَ لا الأشجار... أو العواصف التي تهب بغير مواسمها... أو الغيوم التي تحجب الشمس أو الأمطار؟

نظر حوله باهتمام وترقب، وهو يتفحص أكبر ملفاته وأكثرها دقةً ونظافةً وترتيبًا، وحوت آخر حروفه وأرقامه، فوجده ثقيلاً بالذنوب، وعُرضة للتدقيق والعتاب والمحاسبة أكثر من غيره، لِمَ يملكه صاحبه من علم ودراية وثقافة ووعي، خاصة وبأنه يخصه ويحاسب من خلاله تقصيره مع غيره!

ضحك ملء شدقيه وتساءل... إذا ما كان عليه أن يبدأ به... فهو مرآته للآخرين وصورة عنهم؟!

أم أن عليه أن يلملم أوراقه وملفاته... بصدقها وكذبها... ببشاعتها وجمالها... بظلمها وعدالتها... بمرارتها وحلاوتها... ويعود بها إلى صمته السابق... إلى قبره؟!

جنيف ٢٠٠٥

••••

إسرائيلية من يهود «الفلاشا»

كنت أتناول قهوتي في مقهى القطار السريع (T.G.V)، أثناء إحدى رحلاتي من باريس إلى جنيف (منذ سنين كثيرة مضت)، كان فيها هذا القطار هو الشغل الشاغل للناس، والإعلام يتحدثون عن سرعته وخدمته والراحة التي يؤمنها لزبائنه...

عندما حلَّت على طاولتي سيدة في الأربعين من عمرها، شقراء أنيقة المظهر والزينة، وتفوح منها روائح عطر، تختلط بتلك التي تعبق بها مواد التجميل الأخرى...

لم تمضِ لحظات حتى انضمت إليها فتاة من أصول إفريقية، فتبادلا التحية والنظرات وكأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ زمن!... ولم يستمر الصمت حيث مزَّقه تساؤل الأولى:

- ذاهبة إلى جنيف؟

الثانية بفرح:

- أجل

- هذه زيارتك الأولى؟

- لا، ولكن أنا أعشق هذه المدينة ولي أصدقاء وأقرباء فيها.

- يبدو من لهجتك بأنك جديدة على اللغة الفرنسية! هل

يزعجك إذا ما سألتك من أين أنتِ؟

الثانية وقد فتحت عينيها بذهول ورغبة في الكلام، خاصةً بعد أن لاحظت السلسلة الذهبية المتدلية من على رقبتها وهي تحمل نجمة داوود:

– أنا إسرائيلية من يهود «الفلاشا» كما يسموننا.

الأولى بشيء من الغبطة:

– أنتِ إسرائيلية مثلي إذًا؟!

– وهل أنتِ إسرائيلية؟

– نعم، أنا فرنسية من أصول يهودية، ولكنني أقيم في سويسرا منذ زمن بعيد، منذ لجوء عائلتي إليها أثناء الحرب العالمية الثانية... فهي أكثر أمانًا لنا.

ثم تابعتْ:

– أنتِ تقيمين هنا أم في إسرائيل؟

– إسرائيل جميلة وحلوة، ولكنني أفضل العيش في جنيف، إنها أهدأ ولا يمكن لأي كان من أن يتهمك باغتصاب مكان أو بيت أو أرض ليست لكِ! واحتمال أن تصيبك شظية من قنبلة تقضي عليك وعلى أحلامك أقل بكثير من هناك!

– عندك حق، لقد أصاب مشروعنا في إيجاد وطن آمن لنا الكثير من المصاعب... إنه نفس شعوري.

– المهم إنني وعائلتي حصلنا على ما نحتاج إليه، من اعتراف بالوجود من الدول الأخرى، ويكفي جواز سفري الإسرائيلي! فهو جواز عبور نحو الحرية والغنى، بدلاً من الفقر والاضطهاد

الذي كنا نعيشه!

ثم تابعت:

- أتعتقدين بأن الروس وهم ليسوا يهودًا أحق منا في ذلك؟

- ولكنك أنت يهودية في الولادة والأصل، وإن كنت مهملة أو منسية ولا بد أنك تجيدين العبرية!

الثانية وهي تقلب بشفتيها وتبتسم:

- تتكلمينها أنتِ؟! أنا تعلمتها في إسرائيل... ولكن أفضِّل الفرنسية عنها، فهي برجوازية وتناسب الفتيات مثلي أكثر (وهي تضحك) ألا توافقينني على ذلك؟

- عندك حق... هذا ما أفعله... أنا حتى في البيت مع أهلي وعائلتي نتكلم الفرنسية، أما العبرية فنتركها لإقامة الصلوات في المناسبات!

واستمر الحديث بين الاثنتين لأكثر من ساعتين، هي المدة المتبقية لوصول القطار السريع إلى جنيف، تبادلا فيها العناوين وأرقام الهواتف، بعد أن سلسلت كل واحدة منهما أصولها وجذورها، وتتبعها لانتمائها لإحدى القبائل اليهودية السبعة المعروفة.

كنتُ خلال تلك الفترة الزمنية ألهي نفسي، بالنظر عبر النافذة الصغيرة باتجاه الحقول والمزارع التي كانت تمر بسرعة البرق من أمامي، بالرغم من التعب الذي كان يصيبني، من السرعة الخارقة التي يسير بها القطار، والتي قد تصيبك بالدوار، حتى لا أثير شكوكهما بمتابعة حديثهما

المثير للاستغراب والاستهجان والغضب.

كانت المرة الأولى -بالنسبة لي- والتي أتعرف بها على وجود سلالات وعائلات وجذور وأصول يهودية متعددة يؤمنون بها ومتفقون حولها!

وكانت صدمتي بهذا التلاحم المادي والمصلحي، في تأسيس هويتهم الهشة على حساب شعب بريء، وتشريده ومحاولة تصفيته بكل الوسائل التي يملكونها، قد بلغت ذروتها من الغضب، ولم يمنع تدخلي سوى تركهما لطاولتي وهما تستعدان لمغادرة القطار، بعد أن أعلن عن وصوله إلى نهاية رحلته.

جنيف ٢٠٠٦

••••

خطوة للأمام... خطوتان للخلف

ها هي ستلتقي به أخيرًا... ووجها لوجه هذه المرة، لا يفصل بينها وبينه سوى ظلال شجرة سنديان ضخمة، تتربع وسط الحديقة الصغيرة، في شبه الجزيرة القائمة، على نتوء بسيط يطل على بحيرة جنيف.

وقد قررتْ -وهي تتوجه إليه- أن تتحاشى النظر مباشرة في عينيه... خوفًا من أن تضعف، أو تستسلم لشروطه التي رفضتها عشرات السنين!

اقتربت منه بحذر، تتصنع الكبرياء والعنفوان، وكأنها تعود ثانيةً لحلبة المصارعة، لتخوض جولة أخرى من جولات معركة بينها وبين خصم تعرفه، وتعرف تكتيكاته معرفة جيدة، وتعودت على تلقي وصدّ وتوجيه اللكمات فيها، دون أي شفقة أو رحمة.

وفيما هي تتجاوز الظلال، كانت تبحث عن نقطة ما تسند عليها نظرها... بعيدًا عن وجهه، حيث تتربع عليه ابتسامته الساخرة المخيفة... وتدعو الله في سرها بأن لا يفضح وهنها، وتعب السنين الطويلة التي تركت آثارها الواضحة على سحنتها البيضاء الناعمة، خطوطًا متعرجة ومتقطعة تطوق رقبتها وبعضًا من أطراف جبهتها.

ولشدة ارتباكها من زحمة تلك الأفكار التي سيطرت عليها دُفعة واحدة، علق كعب حذائها في تربة الحديقة الرطبة، وكادت أن تخسره، لولا عناية التمثال البرونزي الذي أمَّن لها متكئًا يدفع عنها الحرج... فتصنَّعت الاهتمام بقراءة اللوحة المعلَّقة عليه: (هذا نصب تذكاري للمفكر والفيلسوف الكبير «فولتير» ابن مدينة جنيف، الذي أمضى ردحًا كبيرًا من شبابه فيها مسطِّرًا أجمل أعماله)...

فابتسمت وهي تجول بنظرها تفاصيل هذا النصب، وتذكرت أول لقاء به في ذات الحديقة... وبجانب ذات التمثال... وأول حديث ونقاش دار بينها وبينه حول الفن والأدب والفلسفة والدين... وهمست تحدِّث نفسها:

«كم كنتُ ساذجة وسخيفة... تصنعت الاهتمام بكل تلك الفنون، معتمدة على ثقافتي الكبيرة التي غنمتها من قراءة الكتب الكثيرة، التي كنت أستعيرها من مكتبة والدي، لكيلا أفقد صداقته... كنت تحت تأثير نظراته وكلماته الدافئة الحنونة!...

كم كنتُ سعيدة جدًا عندما منحني موعدًا للقاء ثانٍ به... لم أنم ليلتها... كنت كثيرة الانشغال بالسؤال عن تلك الصدفة، التي من الممكن أن تجمع بين اثنين، كل منهما جاء من بلد يبعد عن هذه المدينة آلاف الأميال... لا يرتبط أي منهما بأي رابط بها سوى الحلم... أو ربما القدر... وبأن تلك الصدفة، وهذا الدفق الاستثنائي للمشاعر الجميلة التي

غمرتني لم تكن لتحدث عبثًا!...

أذكر كيف تخليت عن أصدقائي، وضحيت بعائلتي وميراثي ودياناتي ووطني لأجله... ولأجل حبه... وأعرف بأنني لم أستفق من وهل هذه الصدمة العاطفية، ووهل هذا الحلم الرائع الذي زيَّنه بحبه ورعايته وحنانه، إلا بعد أن أصبحت أُمًا لطفلين رائعين خطفا كل اهتمامي... ومنذ ذلك الحين بدأت أخسره شيئًا فشيئًا...

وبعد كل كبوة كنت أعيشها ضحية قلة حيلتي من جراء محاولاتي استعادة حب وثقة أبوي المفقودة -بإهدائهما حفيدين لم يكونا ليحلما بهما دوني-... كان يبتعد عني أكثر فأكثر!

وكثرت أخطائي وعثراتي ومحاولاتي تصحيح ما أستطيع منها، حتى خسرته وخسرت أطفالي... وخسرت شبابي أيضًا!».

فجأة انتبهتْ لشرودها، فحاولت أن تلقي نظرة سريعة -من خلف نظارتها الملونة- حول المكان الذي بدا مظلمًا بسبب الظلال الكثيفة لأوراق الشجر... فلم تجده... فاستغلت الفرصة لاستعادة حذائها وترتيب هندامها... ومشت باتجاه المكان الذي لحظته فيه أول دخولها الحديقة.

اقتربت من المقعد الخشبي الأخضر الذي كان يجلس عليه تتفقد آثاره... فلقد تعودت على أثر له يتركه خلفه أينما حلَّ وفي أي مكان وُجِد... صحيفة، بقايا من سيجاره المفضل، أو

حتى رائحة عطره المميز.. ولم يخب ظنها... ها هي صحيفته تغطي جزءًا من المقعد وعليها آثار جلوسه، فلقد تعوَّد أن يفترشها ليحمي ألبسته من قذارة الطيور الكثيرة التي أخذت من الشجرة الكبيرة بيتًا لها.

ثم رمت بنفسها عليها وشعرت وهي تحسن من جلستها؛ بدفء مقعده، فانتابتها قشعريرة خفيفة وكأنها تتكور لتحتمي في حضنه... ثم همست تحدث نفسها مرة ثانية:

«هل يمكن أن يتسرب دفئه -من خلال الصحيفة- إلى بدني؟ فأشعر به وكأنه يضمني إليه، ويحتويني بذراعيه ليغمرني بقبلاته كما فعل لأول مرة؟... أم إن هذا الإحساس ليس أكثر من رهبة المكان، وكل ما يتعلق به من ذكريات لقائي الأول به... وقد طفا بي إلى سطح هذه المشاعر الحميمة؟

إذن لهذا السبب اختار أن يكون لقائي به هنا، وفي فصل الربيع... ليذكِّرني بماضٍ يظن بأنني تنكَّرت له... هل يفكر باستمالتي، والتأثير عليّ ليملي شروطه، ويحرمني من الاستمتاع برفقة أطفالي بعد غيابهم سنين طويلة عني؟

أين هم؟ لم ألاحظهم برفقته!... لا بد أنني قطعت آلاف الأميال لزيارتهم دون جدوى!

إنها لعبة منه ليستفز بها أعصابي، ويحطم ما تبقى بي من شموخ وكبرياء... لا.. لن أدعه يفعل بي ذلك مرة ثانية... سألقاه بكل الإصرار والعناد وشهوة الانتقام الذي يستحقه!».

ثم استدارت بشكل عفوي نحو ملاعب الأطفال، تتفقد وجوه الصبية، فلم تجد أثرًا لهما... فشعرت بخيبة الأمل... وتذكرت بأنهما لا بد قد تجاوزا سن اللعب فيها... وبدأت بلملمة حوائجها -تهم بالعودة إلى الفندق حيث تركت والدتها-... عندما شعرت بقبضة ناعمة تهزها وبصوت شاب خجول يقول: «ماما»!

نهضت وقد شعرت برهبة ممزوجة بخوف غريب يجتاحها... لتجد نفسها أمام شابين وسيمين يتجاوزانها طولاً وقد علا وجهيهما ابتسامة تفيض رضا وشوق... ولم تستطع أن تفعل أكثر من تأملهما... لتميز كل منهما -بما حفظته من صفات يتصف بها- عن الآخر...

لم يُخرجها من حيرتها سوى تقدم والدهما نحوها... وهو يشير إلى كل من الولدين بالاسم... ذاكرًا بعضًا من نجاحاته التي حققها، في دراسته وجامعته وحياته الاجتماعية وهواياته... لينسحب بعدها متوجهًا نحو الشاطئ... ومن هناك كان يراقب بشيء من الحذر تصرفات ولديه معها، فوجدهما قمة في الأدب والاحترام... ويرقيان بكل فخر إلى ما أمله منهما.

في تلك اللحظات فقط، شعر لأول مرة في حياته بأنه كان محقًا فيما فعل، وبأن تلك الابتسامة الصادقة التي تغطي ملامحهما البريئة تبقى دونها أي تضحية مهما كبرت!

حاول وهو يتأملها بشيء من الشفقة، أن يعرف سر هذا

الجنون الذي يمتلك المرأة فجأة ليدفعها للتضحية بكل ما تملك... ولتقضي على كل ما حلمت به... أو ما حلم به زوجها من سعادة لها ولبيتها وأطفالها؟!...

وبأنه مستعد لأن يدفع ما بقي من عمره، ثمنًا ليعرف هذا السر مهما عظم!

وبالرغم مما كان للمكان من قيمة نفسية وعاطفية لديه، لم يحاول أبدًا العودة إلى الماضي الذي أسدل الستار عليه، بعد أن تلوثت ذكرياته الجميلة بمأساة وأذى لم يستطع تجاوزهما...

وتمنى من الله أن تمر هذه اللحظات على خير، وألا يندم على قرار اتخذه بجمعهما سويًا، حُبًا واحترامًا لمشاعر طفليه... خاصة ألا تقترب منه لتعاتبه وتجادله فيما لم يعد بإمكانه الرجوع عنه أو تغييره.

لم تمضِ لحظات قليلة على أمنياته الفاشلة، حتى لحظها تقترب منه، وعلى ملامحها رغبة أكيدة في الصدام معه!... حيث لم تتأخر من توجيه الحديث له قائلة:

- فخور بنفسك لا بد؟! أنهما لم يتعرفا إلي... لم أشعر بنفسي أُمًا لهما... لقد فقدت الإحساس بأمومتي!

- لقد كان اختيارك... وقرارك... لا يحق لكِ الندم بعد كل هذه السنين... كنتِ تركضين خلف أحلامك تتصيدينها.

- تقصد عودتي إلى عملي، كان اختيارًا غير صائب؟ تريدني أن أبقى دون إيراد شخصي... بعيدة عن طموحاتي... وأن

أخسر فوق كل هذا راتب تقاعدي، الذي سوف يحميني من شَرّ الأيام السوداء؟

- لم تكوني بحاجة لهما... ولقد كان هذا اتفاقنا قبل أن تنجبي.

- كنت غبية عندما وافقتُ على ذلك... لم أكن أفكر سوى بسعادتك، بإهدائك الطفل الذي تحب... كنت أريده عربون حب وضمانة لبقائك معي... لأنك شرقي ولا تستطيع أن تحب إلا إذا أنجبت زوجتك لك طفلاً... كنت غبية... أعترف بذلك!

- إذن أين المشكلة؟ الأطفال يقوون الروابط بين الزوجين ولا يفرقون بينهما... إنها أنانيتك التي أودت بك إلى هذا المصير.

- أنانيتي؟!... لأنني أحببت أن أحمي أطفالي منك، ومن مغامراتك الطائشة؟! تريد أن تذهب بهم إلى بلادك المتخلفة المزرية، التي تحكمها الدكتاتورية وقانون العسكر؟!

- إنه اتفاقنا وأنتِ من أخليت به.

- تعتبر حرصي على حماية أطفالنا من المجهول، الذي رغبت رميي ورميهم فيه، إخلال بالاتفاق؟!

ثم تابعت بغضب:

- لم أكن أعرف بأن حياتي وحياتهم، مستقبلي ومستقبلهم، ممكن أن يتعرضا للخطر والحروب في الجوار تشتعل!

- إنها أفكار والدتك السخيفة... ملأت بها عقلك الصغير، لتنتقم مني ومنك لا أكثر... إنها بكل بساطة لا تحبني... (بتهكم) لم ترغب بأن استولي على جهد عمرها بك، ترعاك وتعلمك لترفع رأسها عاليًا أمام الأهل والأصحاب!... وقد رسمتْ لك مستقبلاً وزواجًا وإكليلاً يناسب ما حصلتِ عليه من نجاح وعلم في أرقى المدارس السويسرية.

ثم تابع وهو يغني المقطع:

- عندها حق من أنا... القادم من وراء البحار لا هوية ولا اسم لي عندها... حتى أستولي على أغلى ما لديها!

- بل قل إنها الحقيقة التي غابت عني، والتي أعماها حبي وعشقي بك... كم كنت غبية ومجنونة!

- وما ذنبي في ذلك؟... لقد ردعتك لأكثر من مرة، وأبعدتك عني، وأقصيتك من حياتي، من أول إشارة امتعاض شعرت بها من طرف أهلك... تعرفين بأنني لا أحب المشاكل... وليس لدي وقت لكي أسرد تاريخي وتاريخ عائلتي، وألقن الآخرين دروسًا في الحضارة والخلق والسلوك، لكي أكسب حبهم واحترامهم... أنا الضحية في كل ما حدث ولستِ أنتِ... كفاك مسكنة... أرجوكِ.

- تريد حُبًا بالمجان... امرأة تحبك وتضحي لأجلك بدون ثمن... هكذا تفهم الحب وتفهم التضحية؟!

- ألم تكن السنين الأربع الأولى من زواجنا -قبل أن تنجي- كافية لاختبار حبي واهتمامي ووفائي لك... ووضعنا

الشروط ووافقتِ عليها... بل وأقسمتِ -إذا ما أصابني مكروه- على احترامها؟

- تقصد أن أعلِّم أطفالنا لُغتك، وأعمدهم بدينك، وأرعاهم في أحضان ثقافتك؟

- طبعًا، ألم يكن هذا اتفاقنا؟

- ولكنك لازلت هنا بيننا كالشيطان بكامل همتك ونشاطك... ولهذا فوعدي لك يصبح لاغيًا.

- ومغادرتك برفقتهم بعد أن استغليت غيابي -في رحلة عمل خارج المدينة- دون أن تتركي أي عنوان أو خبر... هو دليل حب وثقة واحترام لمشاعري، وخوف على مستقبل أطفالك؟!

- لقد فعلتُ ما اعتبرته صحيحًا حينها... والحق عليك لأنك كنت تعد العدة لاصطحابنا إلى بلادك، وطبول الحرب تقرع فيها وعلى أبوابها.. لا تقل غير ذلك.

- واختفاؤكِ معهم وتغيير هويتهم ودينهم، وزجهم في مدارس داخلية دينية خاصة، تحت أسماء جديدة حتى لا أستطيع العثور عليهم؛ يوضع أيضًا تحت بند الخوف عليهم وعلى مستقبلهم؟!... بالله عليك كيف تستطيعين تفسير هذا الهوس وهذا الجنون بتدمير حياتنا؟!

- ومع ذلك لم أقدر عليك... وحصلتَ بفنك في المراوغة والكذب على ما تريد، واستطعت العثور علينا والهروب برفقتهم، ومنعي حتى من رؤيتهم... كم كنتَ قاسيًا لا

يعرف قلبك الرحمة... أشتهي أن أضربك بكل قوتي حتى الموت... أنت أم أنا في هذا الكون (وهي تبكي).

- لم أمنعكِ يومًا عنهم... (ساخرًا)، أنتِ من أصرَّ على استعطاف القضاء والشرطة، وتجييش الجمعيات والمنظمات الإنسانية، ووزارات الخارجية والسفارات... وبينهم أشرار كُثر؛ للحصول على ما لم أمنعه عنكِ يومًا... إنها رغبتك في الانتقام، وبحث عن ثمن لائق لاسترجاع ثقة وحب والديك وأهلك بك لا أكثر.

- (بهيستريا غير متوقعة) أيها المجرم الظالم... لا أعرف كيف أقنعتَ القضاة بالإفراج عنك، بعد أن زججتُ بك في السجن... لو كان بإمكاني لقتلتك الآن... أنت بلا شفقة... بلا رحمة!!!

- (وهو يبتسم) ها قد عُدتِ للتهديد والشتائم... هذا أنت عندما تفشلين في تبرير أخطائك، تبحثين عن العُذر عند الآخر... في رجولته، شهامته، خُلقه، وتسامحه... والآخر الذي يجب أن ينصاع لنزواتك هو أنا، وعلي دفع الثمن غاليًا لأجل احترام الأنثى الضعيفة المظلومة.

- (وهي تتجاهل كلامه) لابد قد دفعتَ ثروة كبيرة لمحاميك حتى تستطيع الإفلات منهم... لم يحصل هذا من قبل... (وهي تقترب منه أكثر)، لقد خدعوني السفلة عندما اقسموا لي بأنهم لن يطلقوا سراحك إلا بعد أن أحصل على ما أريد.

- (وهو يضحك ساخرًا) وحصلتِ على ما تريدين حقًا!؟ أرجو ألا تكوني برفقة حُراسك الشخصيين كما جرت عليه عادتك، بعد أن تفننتِ بترويج التُّهم والأكاذيب عني، وهي موضة هذه الأيام، طالما أنتمي لبلد ووطن متهم بالإرهاب.

- (وهي تمسح دموعها وتستعيد نظراتها الحادة) ومن قال لا... إنهم هنا في كل مكان ينتظرون منك حركة... حركة واحدة خاطئة معي... أستطيع الآن أن أنهال عليك بالضرب، دون أن تستطيع فعل أي شيء، أيها المسكين... وقادرة إذا أحببتُ أن أعيدك إلى السجن... وهكذا سيسر أطفالك بحمل البرتقال لك لزيارتك فيه... كم أشتهي أن أفعل أي شيء يطفئ غليلي منك... أيها الظالم الذي لا يعرف الرحمة.

- (وهو يبتسم) لقد وصلتِ متأخرة يا عزيزتي عشرات السنين ... لقد انتهت اللعبة... وأنتِ تجنين ما زرعته يداكِ.

أجابته وقد شعرت بفقدانها السيطرة على أعصابها وتوازنها، فحاولت أن تغيِّر من لهجتها وهي تتودد إليه:

- تهزأ مني أليس كذلك؟ نسيت حبنا... الأيام الجميلة التي قضيناها معًا... أنت تستغلني وتبتسم لأنك واثق من حبي لك... لا شيء يخيفك مني... واثق بنفسك كثيرًا ومغرور.

- لم أنسها... كما لم أنسَ شقائي أشهرًا طويلةً أبحث عنكِ وعنهم... في طول البلاد وعرضها... أذكر جيدًا كيف كنتُ أتعرض للسخرية والطرد من قبل الجميع... جميع أهلك

وأقربائك ومعارفك، وأنا أتوسل إليهم بالسماح لي برؤية أطفالي... أذكر الشرطة تلاحقني من بيت إلى بيت، ومن قرية إلى قرية، ولا يهدأ لها بال قبل أن تطردني وتضعني على حدود المقاطعة، الواحدة تلو الأخرى، بعدما يرغموني على التوقيع قهرًا على مذكرة تعهد بعدم العودة، وطرق الأبواب للسؤال عنك وعنهم من جديد... أذكر جيدًا موقفك المزري وأهلك اتجاهي، عند أول أزمة مالية مررتُ بها... أسرعتِ إلى محاميك ليعد العدة للانفصال، حتى لا تأخذي نصيبك من الملاحقة والإفلاس...

ثم تابع متأثرًا وهو يخفي ألمه:

- وأكثر من كل هذا أذكر كيف بيعت ممتلكاتي بالمزاد العلني بعد أن أصررتِ على أخذ حقك منها... من قال إني نسيت؟؟!!!

- إنها نصائح والدتي... فهي تعرف ما تدبر، وخبيرة في هذه الشؤون... أنا لا ذنب لي... لماذا عليّ أن أكون دائمًا على خطأ وأنت على صواب؟؟؟

- واستشارتك للمنجمين، وسعيك في تنفيذ رؤاهم وتصوراتهم وحلولهم الخيالية لمشاكلك؟!

- (ساخرة) أيها المسكين لا بد قد تعذبت كثيرًا للعثور علينا... ولكن ليس أكثر مني... وها قد حصلت على ما تريد في حين قد فشلت أنا في ذلك.

- الفرق بيني وبينك... أنك تعرفين عنواننا، ولم أتأخر في

طمأنتك عنهم، ودعوتك إلينا ولم تستجيبي... كنتِ واثقة بوعود اللصوص -من محاميك وأهلك- وها قد عرفتِ النتيجة.

وهي تقترب منه محاولة التأثير عليه قائلة:

- ستسمح لي باصطحابهما معي لرؤية أهلي وزيارة الأقارب... تستطيع أن تأتي معهما إذا أحببت... ألم تشتاق لسواحل «المانش»؟ ومشاهدة المد والجزر الرائع هناك... خاصة عند الغروب!

- هكذا ستتمكنين من إبعاد الشياطين عني... بالتمائم السحرية، وغسلي بالمياه المالحة المقدسة... كم كنتِ تدفعين ثمن مثل هذه الوصفات والخزعبلات المشينة؟!

فأجابته وقد اتسعت حدقتا عينيها الزرقاوين، وهما تنمان عن شعور بالنشوة وإحساس بالنصر:

- آه يا زهرة قرنبيطي... أنت خائف مني؟!... لا تخف، لقد أجمع كل المنجمين على عدم مقدرتهم المساس بك...

ثم تابعت وهي تبتسم:

- لقد قالوا بأنك أنت الشيطان بعينه، ولا يقدرون أن يفعلوا شيئًا معك...

ودون أن تنتظر رده، استمرت بالحديث متوددة:

- قل لي يا شيطاني السمح: هل توافق على اقتراحي؟... دعني أمضي السنين الأخيرة من حياتي برفقتكم... إنني أحتاج لك ولحبك.

- انظري إليهما، لقد تجاوزا سن الوصاية... لكِ أن تفعلي ما شئتِ... ألم أقل لك بأن اللعبة انتهت... انتهت يا عزيزتي... انظري إلى نفسك، لقد أصبحت مسنة... وأولادك يمرحون مع زوجاتهم، وأنت تصرين في كل لقاء على التعامل معهم كأطفال... الحب والاحترام يؤخذ ولا يعطى... أنتِ لم تسعِ يومًا لكي تربحيهم بأفعالك الطيبة... دائمًا تصيغينها كأوامر... عودي إلى رشدك! العالم حولك قد تغير.

أجابته بعصبية، محاولة أخذ زمام الحديث مرة ثانية:

- أنت حقًا مغرور، ومعتوه، ولا تستحق حبي... لقد حرمتني من أمومتي ومن شبابي، وها أنت تهزأ بمشاعري... كم أنت قاس القلب وبلا رحمة.

- أنتِ السبب في كل ما آلت إليه الأمور بيننا.

- لا، أنت السبب، وتعرف حقًا لماذا.

- أنتِ تتخيلين ذلك بعنادك وإصرارك.

- وأنت تتمسك بغرورك وكبريائك.

- أنتِ السبب.

- لا، أنت السبب.

وفيما كانا يتبادلان التُّهم، وإصرار كل منهما على تحميل مسؤولية ضياع حبهما وعمرهما وشبابهما -سدى ودون طائل- للآخر...

كان الشابان قد أصبحا زوجين، ولكل منهما طفلان، وقد

افترشا أرض الحديقة، وهما يتسامران ويلعبان وينظران إلى أبويهما بمنتهى الشفقة والإحسان.

فكلما تقدم أي منهما خطوة باتجاه الآخر... كان يبتعد خطوتين إلى الخلف.

جنيف ٢٠٠٧

••••

قصص قصيرة جدًا

١. خفقة أُذن

سمعت نبضات قلبه تخفق في أذنيها...
وعندما تلمسَّت الوسادة... لم تجده!

جنيف ٢٠٠٤

••••

٢. نظـارة

وقف بين يديها حائرًا... أين عليه أن ينظر؟

بين عينيها؟... وهي تصر لتأخذ مقاس نظارته...

أم بين نهديها؟

أمسكت بأطراف أصابعها الناعمة المتمرسة مقدمة ذقنه، وهي تبتسم وقالت:

- (مسيو) أرجوك ثبّت نظرك بين عينيي، حتى أستطيع أن آخذ قياس النظارة...

وهي تشير بإصبعها على جبهتها:

- هنا على جبهتي... بين العينين.

حاول أن يجمع عينيه، على هدف واحد بين عينيها الزرقاوين... خانته قواه... سقطت عيناه مرة ثانية على فَسخة النهدين.

ضحكت منه... رثت لحاله...

عاد إلى منزله أحولاً دون نظارتيه.

جنيف ٢٠٠٤

••••

٣. ثــروة

كان يدعو الله في كل صلاة له... ألا يمتحنه أو يضيره في أحبابه... وألا يفاضلهم بأملاكه...

فكان يعرف مقدار حلاله من خلال ابتسامة أطفاله...

ويقرأ «بورصة» أعماله في صحة أزهاره!

جنيف ٢٠٠٥

••••

٤. رحلة عَبْر الزمن (*)

عاد الرجل الأربعيني من سفرته عبر الزمن، بعد أن أنجز أهم عملية في تاريخِ البشرية، وهي القضاء على النبي إبراهيم في مهده، لعله يخلِّص الإنسانية من بدع وشرور أتباعه...

فوجد البلاد أكثر فتنةً وخرابًا... وسُكانها يتقاتلون حول إرث نبي لم يستطع تحديد هويته بعد.

جنيف ٢٠١٥

••••

* قصة قصيرة من وحي الواقع الأليم الذي تعيشه شعوب ورثة الديانات الثلاث، الذين قاموا بتفريغها من جوهرها، لتتربع على عرش الديانات الأكثر دموية وعنصرية وإرهابًا، منذ عصر التوحيد الذي قاده النبي إبراهيم حتى اليوم.

● ● ● ●

نقاشات

دراسات

آراء

تعليقات

نـقـد

الرؤى الاجتماعية في نص أحلام فتاة شرقية

بقلم: د. سعاد جبر (*)

يشكِّل المجتمع برؤاه الجمعية، انعكاسًا جليًا لمؤثرات السلوك على مسرح واقعه المتضاد، وفي الوقت ذاته مادة تراكمية اجتماعية لإسقطاتاته الجمعية، وتتشكَّل تلك الإسقاطات في خطوط متقاطعة في أبعاد متنوعة، ومنها بُعد الأنوثة واقعًا وحلمًا، والرؤى الاجتماعية التي تؤطر حياتها، بين النمطية وكسر الحواجز في لغة الهروب اللاشعورية، في متناقضات الأنا التي تسكن الروح في الأعماق، وتنعكس في متناقضات قيم الجسد...

ومن هنا يطل علينا نص (أحلام فتاة شرقية)، ليعكس لنا حياة حالمة في تراكمات أنوثة ما في مقطع المجتمع، حيث تدور مادة القص في تتبع رحلتها العمرية باختزال للحظات عابرة عبر ذلك العقد الزمني في حباته المتسلسلة، حتى بلوغ سن الثمانين، في الاقتراب تسارعًا نحو وداع الحياة...

والنص يكثف بؤرته المركزية في أحلام تلك الصبية الصغيرة في ظل لُغة فارس الأحلام، وتداعيات أُسرة أمام المجتمع في ظل أزمة كثرة عدد البنات في الأسرة ونظرة المجتمع لبقائهن

* د. سعاد جبر، كاتبة وناقدة في مجال سيكولوجيا الأدب، مستشارة في مجال التربية الإسلامية والذكاء الانفعالي وهندسة الذات، ناشطة في مجال حقوق الإنسان.

بلا زواج، وما في ذلك من خدش للأسرة، إضافة إلى عدم تحمل المجتمع لحقيقة كثرة عدد البنات في الأسرة، واعتبارهن عبئًا ثقيلاً في عين الأسرة، ومصدر تهكم المجتمع وسخريته.

ويسلِّط النص على تراكم تلك الإسقاطات في تماهيات الأمومة في الأسرة، ومثابرتها في الخروج منتصرة من رؤى المجتمع، في لغة تزويج البنات وتأهيلهن للحياة، وهنا تنقدح الجدلية... هل هو سلوك في محض الواجب؟ أم الحب والانتشاء؟ أم رد اعتبار قبل إصدار المجتمع أحكامه المتهكمة على الأسرة، في لغة العنوسة وعدم الزواج، في ظل معطيات كثرة البنات في الأسرة؟!

ويعكس النص الرؤى النمطية للزواج واختزاله في مقطع من اللحظات، غدا من سلم القداسة بين الذكورة والأنوثة ورحلة اعتبار الرجولة، وتماهيات تلك الرؤى المتضادة التي تعكسها العادات والتقاليد الرثة، في لغة زخم حراك الرؤى الاجتماعية في خصوصيات الذوات ورحلتها في الحياة في رباط الشراكة الزوجية.

وهنا يبرز لنا عدم عبء الصبية الصغيرة بتلك التعليمات المنسكبة من الرؤى الاجتماعية، وتكاثف رؤاها في أبهة الظهور في منصة الزفاف، وتكاتف الأنظار في مطالعة بهائها الملائكي الأبيض.

وهنا مقطع اجتماعي انفصامي بين الذوات والمجتمع، وتبرز حدته البالغة مع رحلة الزمن، حيث يؤول انفصام مع الزوجية في انفصام مع الذات نفسها؛ بين الواقع المنهك بالإسقاطات، واللاشعور الملتهب الصاخب في الوجود الحر، بعيدًا عن الحواجز وجدران الحقيقة الصامتة.

ويكثف النص سرده حول منظومة الرؤى التي تخترق بنية الزوجية في لغة الشراكة، وثقل الأعباء التي تكتنف حياة المرأة الشرقية وفق تراكيب النص السردية، بحيث تشكل تلك المحطة الخط الفاصل بين الواقع في متضادته وأعبائه، والأحلام في خطها الساحر الواهم مع فتى الأحلام... إذ ما زالت ترفرف في اللاشعور ولا تجد لها مكانًا في الوأد الوجودي.

ويتجاوز النص حبات عقد الزمان، ويعكس لنا شخصية (ندى) وقد غدت أُمًا مثاليةً، حيث تحتضن أجنحتها أُسرتها الصغيرة، تتعهدهم ليل نهار.

ويعكس لنا النص حالة الزوج وقد أدهمته الأيام ولغة ذبول الجسد، وخطوط المرض المعمقة في الجسد، وشدة معاناة تلك الأمومة في الرعاية والتمريض وبذل التضحيات.

وهنا تبرز عقدة النص الاجتماعية في تراكمات اللاشعور الرافض للغة الواقع، وتمرد تلك الأنوثة في تصاعدات لغة الرفض والإسقاطات، إذ ما زال يسكن رسمًا واهمًا ما في أحلامها لفتى الأحلام البهي النشط على مسرح الحياة، لا المقعد العاجز عن الحراك مع رحلة الزمان وضنكها.

وهنا تبرز حدة الصراع الدامي بين الأنا الناطقة والأنا اللاشعورية، حيث تكون الغلبة للاشعور المتهالك في الرفض وأنانية الذات، وهنا تتشكل لغة الإهمال في العناية بالزوج وبلوغ مسرح الجريمة ووداع الزوج للحياة لدواعي الإهمال، وهنا تتساقط في النص لغة التأنيب وتقاطعات الذنب في حياة ندى الأم والجدة تواليك في الحياة، ولغة الندم في وهم مسرح فتى الأحلام، وهنا تتشكل يقظة الوعي في كلمات فتى الأحلام لها: «كنتُ معجبًا بك وأحترمك وأجلّك، لأنك امرأة

تتمتعين بجمال وفتنة وعفة الملائكة... ولكن سرعان ما أدركت بأن الهالة الإلهية التي كانت تحيط بك قد انطفأت، بانطفاء من أشعلها بحبه ووفائه... وقريبًا ستدركين حجم الخسارة، بفقدانك الرجل الوحيد القادر على حبك، وحمايتك ودفع الأذى عنك، حتى وأن كان مقعدًا!».

وهنا تتصاعد اللسعات في اللاشعور، ورفض لغة التأنيب والركون على تمرد وأنانية الذات: «ألا يحق لي أن أحلم وأتنفس وأحب وأعيش كامرأة؟ كأنثى؟... - بكل بساطة - كامرأة أنثى؟!».

وهكذا يعكس لنا النص الرؤى الاجتماعية في مقاطع تضادتها وتبعثرها على الواقع، وإسقاطاتها السلبية في مؤثرات السلوك، وتكثفها في مقطع بين الزوجية، وانعكاسها على الواقع برمته.

ويؤكد النص حجم الهوة التي تصنعها تلك الإسقاطات، واعتبارها قنبلة موقوتة، تأكل الأخضر واليابس، ولكنها ساكنة في المجتمع، تؤطرها لغة التصاعدات والمزيد من الاستنزافات في مدارات اختلاف الذوات لا التقائها العبق على مسرح الحياة.

ولا يسعني في نهاية مطاف رحلتي مع النص المبدع ورؤاه الاجتماعية إلا أن أزجي كل تحايا نوارس الإبداع على شواطئ التجليات لمبدعنا الألق (يحيى الصوفي) ودامت فراشات انشطارات إبداعك مرفرفة على الصفحات.

••••

الأستاذ الفاضل يحيى الصوفي: تمتلك لغة سلسة في سرد الأحداث، والانتقال بكل عذوبة متخطيًا عشرات السنين... كتخطيك ليلة الزفاف إلى عشرة أبناء، أو موت الزوج إلى بلوغ الثمانين... وكل قلم وراءه هدف نبيل يريد أن يبلغ بحبره فكر القراء، فيحق الإجلال والاحترام... شكرًا لك أيها الاستاذ... وتحية لك وتقدير.

- (عبد الرحيم فرغلي)

••••

الكريم يحيى: هذه الندى استوقفتني كثيرًا وتملّكت حكايتها تفكيري، واستفزتني للمناقشة في محاور العادات والتقاليد... في مرحلة الطفرة التي نعيشها حاليًا في العالم العربي والتي أثّرت على تفكير البنات... في ظل رياح التغيير التي ساهمت وبشكل غير مباشر في توجيه نظر الفتاة عن الزواج، وفي إعادة بلورة التكافؤ الذي لابد من تواجده بين الطرفين...

هل كانت ندى ضحية ذاك الزمن، وناجية هذا العصر؟... وهل شعرت ندى بفارق ذاك العمر الأمر الذي أحاطها بالندم إذ لا ينفع؟... وهل كانت على استعداد للبدء في علاقة جديدة لو سنحت لها الفرصة؟؟... الموضوع شائك جدًا إذا رغبنا أن تكون الحكاية وسيلة للعظة مثلاً.

الحكاية رائعة ومدى الروعة فيها تجلى بوقفة تفكير وتدبّر.

- (رهام زعرب)

••••

المبدع الصوفي: صباح السرد الراقي والإبداع الأرقى... كنتُ هنا أنهل من سيل التقاليد والعادات وتحكُم الآباء ورضوخ الأبناء وخنق الآمال التي لم تتحقق... الكثيرات في مجتمعنا العربي نسخة عن ندى...

المبدع الصوفي: ما أروع ترتيب وتسلسل هذا السرد المتميز.. وليس غريبًا ذلك عنك أيها القاص الرائع... تمنياتي لك بالمزيد من التألق والعطاء.

- (حبيبة الصوفي)

••••

يحيى الصوفي: كثيرات هن أمثال (ندى)، خصوصًا في مجتمعاتنا الفقيرة، حيث يكون حق الفتاة في اختيار شريك حياتها -وتحديد مصيرها أيضًا- (مُصادَرًا)... لا أدرى هل ألقي اللوم على والدتها أم على والدها أم عليها أم على المجتمع الذي تعيش فيه بمؤسساته المختلفة... الخ.

أشكرك على هذا السرد، وقدرتك على الاسترسال في تصوير مشاهد هذه القصة، وترتيب الأفكار وتوضيحها بصورة مشوقة، دمت بود. ولا عزاء لندى.

- (وليد اليافعي)

••••

الأستاذ يحيى الصوفي: حينما تجتمع اللغة، والنظرة الثاقبة، لا تملك إلا الإعجاب بجِدة تلك النظرة، الحدة الممتدة إلى الرؤى، للأستاذة سعاد جبر، ألف شكر جزيل على ما قامت به من قراءة لهذا النص المميّز كتميّز كاتبه، شكرًا لكما.

- (قايد الحربي)

••••

تحياتي وتقديري... هي ليست مسألة شرقية ولا غربية، بل مسألة فردية بحتة، وأظن أنها مسألة تتعلق بفلسفة الفرد الشخصية، والمتكونة من تكوينه الشخصي، وأقصد خصائصه الفردية البيولوجية مضافًا إليها ماهية ضميره، الذي هو جزء من شخصيته، والذي يتكون أصلاً ويترعرع بالتعلم... كيف ينظر هو كفرد للأمور من زاويته هو وليس من زاوية غيره أو من زاوية بيئته، كيف تكون بصيرته هو؟

صحيح أن هناك عوامل كثيرة تؤثر على أداء تلك البصيرة من قريب أو من بعيد، وتؤثر شعوريًا أو لا شعوريًا بها، غير أنه مع ذلك، لا يمكن أن نجد شخصين حتى التوائم المتطابقة، يتفقان على معايير ثابتة لتحقيق السعادة أو الرضا عن الذات، أو الشعور بالأمان النفسي مثلاً، وما إلى ذلك، فكيف ترى هذه البطلة مفهوم السعادة؟!

أهو الاحساس بالأمان مع رجل؟ حتى لو كان لا يملك شيئًا من المدعمات المادية للأمان وأقلها القوة البدنية؟! أم هي مجرد لحظات حب مادية لا علاقة لها بالمسائل الروحية، لحظات

تنتهي بانتهاء الموقف؟!

وهناك مسألة؛ قد تقرِّب الصورة أكثر، الأب مثلاً، هناك إحساس غريب تشعر به الأنثى تجاهه «بما أنني لا أعرف شيئًا عن مشاعر الذكور في هذا الصدد أو غيره» مشاعر نحو الوالد، إحساس بالأمان لمجرد أنه يعيش في هذه الدنيا، حتى لو كان ذلك الوالد يعيش شرقًا وهي تعيش غربًا أو بالعكس، بوجود قوة حامية لها تجعلها تنام بملأ جفونها وهي مبتسمة تنعم بتلك السعادة «سعادة الشعور بالأمان وبالحب غير المهدَّد مهما فعلت البنت ومهما بدا منها، فهي مطمئنة أنه أبوها وانتهى، كلمة ما أروعها لا يمكن ان تعوض».

هل تشعر المرأة مع زوجها بهذا التعويض؟ هل تأمن معه بكل هذا الكم؟ هل تخدمه وتلبي احتياجاته على هذا الأساس وبكل هذا الشعور بالسعادة؟ أم أنها تعيش معه مهددة خائفة من العقاب إن هي قصرت بشيء؟! فتعمل معه على هذا الأساس؟... هكذا مشاعر سلبية تجعل المرأة تخدم زوجها لا حُبًا ولا سعادة بما تعمل، ولكن خوفًا من العقاب بالإهمال أو بالهجر او بقطع التمويل أو...

لذا هكذا نوع من النساء تنتظر الفرصة السانحة لكي تتحرر من خوفها فتظهر مشاعرها الحقيقية كما هي بدون أي زيف أو تكلف بمجرد أن تنتهي أو تنضب وسائل التهديد... أو عندما تجد بديلا آخر للإحساس بالأمان... هذه هي الحياة!

- (نورية العبيدي)

••••

هذه موعظة جميلة لم نرها منذ أن أعتزل حسين صدقي التمثيل... فهي تمثل حالة اجتماعية مازالت تحدث في مجتمعاتنا الشرقية، وهي عدم التكافؤ في الزواج سواء في السن أو الأمور الأخرى...

لكنني أجد المؤلف يحمل ويتحامل على الفتاة التي غـرَّر بها... سواء بإقناعها بهذا الزواج من الكبار أو صمتهم تجاه ما تقوم به الفتاة... فهي ما تزال طفلة... وأجد أن القصة عاقبتها بقسوة.

ثانية لم تقنعني القصة بالتدرج الذي أوصل البطلة إلى القتل!

ـ (ندى فهمي)

••••

المبدع الجميل يحيى: القصة بدأت كالهمس الخافت أو كالنصل النائم في غمده وبدأ يظهر شيئًا فشيئًا يلمع كلون الجُمل التي بدت حادة ومتوترة ومثيرة، وهذا كله (حق) في إطار الفكرة التي تحدث في واقعنا.

صوت الروائي مسموع بقوة، وهذا لا يعيب النص القصصي، يمكن تمثيل القصة في حلقة تلفزيونية... مع تقديري .

ـ (د. أسد محمد)

••••

قصة تقليدية تحدث في أي مكان من الشرق فكل الهمّ شرق!!... امرأة بدأت حياتها بخدعة العمر ولم تفطن إلى السكين الذي سوف ينحرها ويحولها إلى كائن يفقد الرحمة والحنان... قصة أشبه بحدوته واقعية استقاها الكاتب مما يحيط به من أحداث، لكنه وظّفها توظيفا فنيًا ليدلل على أمور يهتم لها في المجتمع وتؤرق ذاته، لأن حلمه أسمى من قدرات الواقع ونتوءاته. وهي مأساة شرقنا وحالته الأبدية التي تحول المرأة إلى جاريه، لا تُستشار إلا إذا كانت ثيب!

تبيع عمرها مقابل فرية إدعاء أن الأم أو الأب يعرفان ما يصلح لها أكثر منها ومن مشاعرها... لذلك عاشت مزيفة المشاعر مع زوجها، بالرغم من أنها أنجبت منه، غير أن فارس أحلامها ما زال يداعب عواطفها... وحينما عاد في لحظة قدرية؛ سقطت كل أسلحة المقاومة، وتحولت السيدة إلى مجرمة تدفع ثمن جريمة كان الأهل هم أصلها ومبعثها... فعاشت تحت وطأة تأنيب الضمير... وإن كان الكاتب أراد أن يدلل على أن المرتكب الأصلي للجريمة هم الأهل وبالتالي هم الذين ينبغي أن يعيشوا عذابات الضمير... وليس السيدة التي تزوجت رجلاً لا تعرفه.

نص جيد... وإن كنت أتمنى لو أن الكاتب كثّف فيه الأحداث واختزلها... لكن هذا لا يمنع جودة اللغة وتمكنه من أدواته في أعلى مستوى، ليشرح لنا معاناته ووجهة نظره وموقفه من الحياة.

- (الحبيب بن الشيخ)

••••

- ردود على تعليقات قصة: أحلام فتاة شرقية

بقلم: يحيى الصوفي

الأخت الأديبة سناء... آه لو تعرفين حجم الكارثة، وكم هُن عدد اللواتي يستفقن في منتصف الليل ويتمنين لو أن النهار لم يبزغ إلا وخبر موت أزواجهن الذين يشاركونهن الفراش قد أصبح حقيقة!... وقد نسين الحب والتضحية والأولاد ورسمن وأعددن لما بعد وفاة أزواجهن؛ صورًا لحياة أفضل تزينها أحلام وردية لا توجد إلا في عالم الخيال!

لقد قضت المظاهر ومتطلبات العصر، وانحسار القيم والفهم الخاطئ للدين، والبحث عن المتع الرخيصة الآنية... وأخيرًا اختفاء معنى العيب وظهور عبارة لماذا أنا وليس هو؟ ولماذا هي ولست أنا؟ وما يفرقني عن هذا وذاك؟! الخ... إلى ظهور فلسفة جديدة وقيم جديدة وأخلاق جديدة لا تمت لمجتمعاتنا بصلة.

هذا ناهيك عن الجهل المطبق بالمعاني النبيلة للأسرة، واعتبار الزواج مرحلة آنية لتحقيق الأحلام الصعبة بعيدة عن تزمت وقهر الأهل والمجتمع.

نظرة بسيطة إلى مستوى الأمية في عالمنا العربي، تعطيك فكرة واضحة عن تلك المعاناة وحجم الكارثة التي لا يلتفت إليها أحد. أتركك بخيرولي للحديث تتمة. مع فائق تحياتي.

••••

أخي الأستاذ الحبيب بن الشيخ:

قراءتك وتحليلك للقصة فيه الكثير من الصواب، ولكن ألا تتفق معي بأن في حياة الفتاة الاجتماعية -خاصة في بلداننا العربية- خلطًا كبيرًا في المشاعر (الحب، الزواج، بذلة الزفاف، المجوهرات، مقدم الفتاة ومتأخرها، مكانة الزوج العائلية والاجتماعية، والغيرة بين الأخوات البنات خاصة إذا كثرت في العائلة الواحدة، ودور الأخ والأب وفي بعض الأحيان ذو القربى، وغيرها كثير ولا تسعها الصفحات) تشترك جميعًا في خيار الأهل والفتاة للزوج المطلوب؟

وأنا لا أخفيك يا صديقي بأن هاجسي حول تحرير المرأة، وتحقيق أمانيها وطموحاتها وأحلامها كان يرافقني منذ كنت صغيرًا لما كنت أقرأه في عيون الفتيات من حسرة في عدم تمكنهن من تحقيق أحلامهن بالخيار الصحيح... منهن من أصبحن أمهات وجدات، ورغم ذلك لم تمنعهن تجاربهن المريرة من إتاحة الفرصة لفتياتهن من الاختيار خارج ما هو متعارف عليه خوفًا من المجهول.

وإذا قلت لك بأن الفتيات عندنا وبحكم تربيتهن والبيئة التي عشن فيها، ورغم تحررهن الظاهر ومخالطتهن للناس وتحصيلهن العلمي، لازلن يعالجن مشاكل الزواج بنفس العقلية التقليدية، وبنفس مظاهر المقايضة في طلب المقدم والمتأخر ومواصفات الزوج المنتظر، مغلقات الباب على نداء القلب، معتبرات إياه من آثار المراهقة والحلم ولا يجب تعليق كبير أهمية عليه!

وأكون صادقًا إذا قلتُ لك بأن منهن من لا تعرفن من الزوج، إلا ما تراه من الخارج وما يحمله من اسم ولقب ووظيفة، حتى

إنهن لا يشتكين من مغامرة عابرة له مضت أو نزوة أو طيش أو ماض أو حتى زواج سابق!

وتطرقي -في القصة- إلى موضوع إهمال الزوج حتى التسبب في موته هي مسألة لم تأخذ كثير وقت منها في التفكير... حتى من الممكن جدًا ألا تشعر بجريمتها... كونها لا تملك تلك المقدرة على محاكمة الذات، وإلا لما تزوجته أصلاً.

وندمها جاء من تأنيب الطبيب لها لأنها خسرت رفيقًا وزوجًا وأبًا لأولادها... ولم تكسب بدلاً منه حبيبها المنتظر!

ومن الممكن جدًا إذا ما حققتْ للقلب مطلبه لشعرت بفظاعة خيانتها بشكل أكبر، لأنها ستكتشف بأن الحب الذي طلبته، لا يشبه بأي حال من الأحوال ذاك الذي ملأ قلبها وسكن خيالها لسنين.

حتى أني لن أكون مبالغًا إذا قلتُ بأن الكثير من فتياتنا، لا يملكن أي وعي أو ثقافة عاطفية أو جنسية، واسترقاقهن للنظر إلى الرجل مع ما يحمله من حرام وعيب، لا يشفي غليل فضولهن في معرفة الطرف الآخر...! حتى من الممكن جدًا ألا تكون على معرفة كافية لنفسها وجسمها ومتطلباته ومتطلبات أنوثتها... ولهذا تقع ضحية سهلة بين مخالب المتربصين بها مع ما يحمله لها من أذى قد يصاحبها العمر كله!

ولهذا أنا ممن يطالبون وبكل قوة بتدريس مادة للتثقيف الجنسي بالمدارس (للجنسين) حتى نرفع الحرج عن الأهل، ونحمي أطفالنا من الوقوع بتجارب لا تحمد عقباها، لمجرد البحث عما هو محرم وممنوع ولو من باب الفضول.

أما تساؤلها في نهاية القصة مدافعة عن نفسها بالقول «ألا يحق لي أن أحلم وأتنفس وأحب وأعيش كامرأة؟ كأنثى... -بكل بساطة-... كامرأة أنثى؟!»، فهو تساؤل مشروعٍ وصرخة مشروعة تحاول وبكل بساطة أن تدافع عما تجده حقًا مشروعًا لها، وهو أن تحب وتحلم وكما يتوجب عليها أن تفعل، كأنثى بإيجابياتها وسلبياتها، ففي الكثير من حلمها وحبها إذا ما حصلت عليه، أشياء تشبه المعجزة في العطاء والبناء والتضحية.

أتركك بخير... مع كامل مودتي.

••••

شارون والفلاشا وبني إسرائيل... والشيفرة الوراثية

بقلم: الأستاذ منذر أبو هواش (*)

(وجهًا لوجه مع شارون)... قصة واقعية مشوقة كتبها الأستاذ يحيى الصوفي، تقرأها فتشعر وكأنك تشاهد فيلمًا سينمائيًا من مشهد واحد، قام هذا الكاتب المبدع فيه بكل شيء: كتابة السيناريو، والإخراج، والتصوير، بل أنه قام بالتمثيل أيضًا، وتنازع فيه بجدارة على دور البطولة مع الإرهابي الهالك (أريئيل شارون).

وها هي أحداث الفيلم تجري أمامنا في صالة فندق دولي جميل من فنادق جنيف، ويقع على ضفاف بحيرتها، لكنه في النهاية فندق مثل أي فندق، ومثل كل الفنادق التي يعرفها معظمنا، مقاعد وثيرة، نزلاء كثيرون، بعضهم ذاهب، وبعضهم قادم، وبعضهم ينتظر، وآخرون يطالعون الصحف.

وبعد تمهيد وثائقي جميل، تبدأ الإثارة الدرامية مع دخول شارون ورجاله إلى صالة الفندق، حيث نشاهد ردة الفعل الأولى للكاتب في مواجهة هذا الموقف المباغت، ونشعر بدفقة الانترفيرون الهرمونية الأولى، وهي تنتشر في أوصال يحيى الصوفي الكاتب والمثقف والمفكر العربي، وتبدأ في تنبيه

* منذر أبو هواش، مترجم اللغات التركية والعثمانية والآذرية والعربية والإنكليزية والأسبرانتو (الدولية).

خطوطه الدفاعية استعدادًا لاحتمال الالتحام الذي بات ممكنًا، وإن لم يكن أكيدًا حتى تلك اللحظة.

ومنذ الانعكاس الأول لصورة شارون على شبكية عين الكاتب، بدأ حاسوبه الذاتي بالعمل، وخلال ثوان معدودات كانت الملفات والمعلومات المخزنة المتعلقة بشارون تتدفق: المجازر الجماعية، القصف الهمجي، هدم البيوت، قطع الأشجار... الأمر الذي زاد من الشعور باقتراب الخطر، ورفع من وتيرة إفراز الهرمون إلى الحد الأقصى...

وفجأة، اختفت معالم الصحيفة، واتجهت العيون مباشرة، وبشكل غريزي وغير إرادي نحو الخطر القديم الداهم... والتقت العين بالعين... وفي هذه اللحظة بالذات تتحرك حواسيبنا الذاتية وتقوم باستحضار صورة شارون بوجهه القبيح وابتسامته المصطنعة الباهتة، لنتمكن من مشاهدة المواجهة بين الصوفي وشارون، وبوضوح أكثر.

لا بد أن الشيء نفسه الذي حصل مع الصوفي حين لمح وجه شارون، قد حصل أيضًا مع شارون حين لمح بعينيه الحريصتين الصحيفة العربية في يد الصوفي، ولا بد أن التفاعلات الكيماوية نفسها قد حدثت أيضًا في جسم شارون الضخم، الأمر الذي جعل طبيعته العدوانية تدفعه إلى التصرف بشكل مختلف وسريع، وإلى التدخل بشكل مباشر وفوري من أجل مداهمة الخطر الذي استشعرت به خطوطه الدفاعية. لذلك فقد كان هو المبادر إلى كسر حاجز الخوف، ومواجهة الخطر المحتمل.

مرة ثانية، نشاهد شارون وهو يكسر حاجز الصمت، ويتحدث العربية باللكنة اليهودية ذاتها، ومع الابتسامة الصفراء الباهتة نفسها (بهكي أرابي بس ما بعرف أكرا أرابي)، ويحاول

وهو في عجلة من أمره، وبمنطقه الصهيوني الأعوج مثل لسانه أن يصدم عدوه العربي بملخص خاطف للحكاية الصهيونية التي يحفظها كل الصهاينة من أمثاله عن ظهر قلب.

لكن الصوفي يمتص الصدمة، ويعيد الكرة إلى ملعب شارون الذي يحاول إكمال القصة المفتراة إياها، لكن الصوفي يوجه إليه الصدمة تلو الصدمة، واللكمة تلو اللكمة، من فوق الحزام، ومن تحت الحزام، ومن حيث يدري، ومن حيث لا يدري.

الخلاصة: لا رابط بين يهود اليوم ويهود الأمس، ولا رابط بين اليهود وهذه الأرض... وتأتي الحقائق متتابعة مدوية، وفي النهاية يفلس شارون، ويردد حجة المفلسين، ولا يخجل -وأنى له أن يخجل- من اتهام الساميين بأنهم يمارسون العنصرية ضد أنفسهم.

بعد أن قرأت قصة هذا اللقاء مع شارون، تمنيت لو أنني كنت موجودًا برفقة الصوفي في ذلك الفندق السويسري لكي أوجه إلى شارون سؤالاً واحدًا وهو:

«أنتم تدعون انتسابكم إلى يهود الأمس بني إسرائيل، وأنكم أحفادهم وورثتهم، وهذا ما هو إلا محض افتراء، ومجرد ادعاء. فالعلم قد تطور، وأنتم خير من يعلم بأن الشيفرة الوراثية DNA قد أصبحت الدليل القاطع على النسب، بدليل استخدامكم لها من أجل التوصل إلى أُسر وأقارب الشهداء الفلسطينيين، فهلا أخذتم من عيناتكم، وحللتموها، وأثبتم لنا مشكورين نسبكم بيهود الأمس بني إسرائيل، أو حتى على الأقل نسبكم يا يهود اليوم بعضكم ببعض؟!».

••••

الأستاذ المبدع المجاهد يحيى الصوفي، يهزم كل الشارونيين؛ عربًا وعجمًا.

لقد وقفتُ صدفةً على هذا الدرس السياسي التاريخي الفني الأدبي الديني الأنثروبولوجي القيم، الذي أهداه الأستاذ الأديب والإعلامي اللامع يحيى الصوفي إلى كل العرب والمسلمين المنشغلين بتكديس المال والمنغمسين بالأعمال دون أن تكون لهم بصمات على صفحات التاريخ لصالح أبناء جلدتهم.

هذا درس لم يتسن لي أبدًا أن قرأت أو شاهدت مناظرة عميقة ومستوفية لشروط الحوار الحضاري المنطقي الموضوعي الهادف جدًا مثل هده المناظرة التي جرت وقائعها بين إعلامي عربي فحلَّ محارب من الواقفين على الجبهة المتقدمة للدفاع عن حياة الأمة، وبين ورئيس دويلة الكيان الصهيوني شارون.

هذا الشارون الذي من آيات الله البينات فيه، أن جعله يبقى معلقًا بين الدنيا والآخرة، فلا هو ميت موجود في برزخ ولا هو حي يرزق... بقي هكذا بين بين أعوامًا، دون أن تتمكن من معرفة أي سبب لذلك لا تستطيع القول إنه ميت حي، ولا يمكنك كذلك أن تقول إنه حي ميت... هكذا تركه الله لغزًا محيرًا وعبرة لكل الظالمين.

والله أنا معجب جدًا جدًا بهده المناظرة التي أفحمت الكثيرين، بِحججها وبراهينها الكثيرة وألف شكر للأستاذ عامر محمود الدي أدرك بحسه الفني الراقي، وحنكته السياسية الكبيرة، وبُعد نظره، ضرورة تكريم الأستاذ يحيى الصوفي المجاهد.

- (عبد القادر بوميدونة)

••••

- ردود على تعليقات قصة: وجهًا لوجه مع شارون

بقلم: يحيى الصوفي

الأخ الأستاذ منذر أبو هواش: بعد التحية...

دعني أقول لك بأنك رجل خارق بكل معنى الكلمة... وأعترف بأنك تنتمي إلى القلة التي تُعدُّ على الأصابع، ممن عرفتهم في حياتي واستطاعوا اختراق ذلك الحاجز الهلامي، الذي يفصل بين الكاتب بفِكره وخياله، والقارئ المتلقي لهذا الدفق الشاعري، بحيث يأخذ العبارات والكلمات التي تلقاها، فيمتطيها ويحلق معها في فضاءها الرحب، ليتعرف على مزاياها وخفاياها الدفينة، حتى يصبح جزءًا منها وهي جزء منه... لتتحول بعد ذلك بين يديه إلى أنشودة أخرى تتجاوزها جمالاً ورقة.

هكذا فعلتَ بنصي البسيط وحكايتي الجريئة... قرأتها بكل مشاعرك حتى وصولك إلى ثناياها الخفية... فأبدعت بالتحليل حتى وصولك إلى الحقيقة.

وهل بعد الحقيقة درجة أخرى أقرب منها إلى الكمال؟

وأنا أشكرك على ذلك، فلقد استمتعتُ بتعليقك مقدار استمتاعي برسم لوحتي وأكثر، فقد أضفتَ لها الإطار الملائم الذي يعطيها حقها من الهيبة والجمال. إنها بحق ريشة فنان ساحر.

••••

تعليقات و آراء حول قصة: (ممبا)

الحب والحنان ليس مقصورًا على الأم وحدها

بقلم: الأستاذ سمير الفيل

رصد جميل وبهي لهذه العلاقة الفريدة التي جمعت الطفل الوليد بالأب في النص (ممبا)...

استرجع بعض المشاهد التي تستوعبها الذاكرة لأحداث مشابهة، وأجد أن الحب والحنان ليس مقصورًا على الأم وحدها... فإن كان الله عزو جل قد بث في قلب الأم عطفًا فطريًا، فإنه لم يحرم الرجل نبع الحنان المتدفق بتلقائية مدهشة.

هذا النص (ممبا) الذي قدَّمه يحيى الصوفي، ذكرني بأيام ترفل في غموض لذيذ، حين كانت تنبت في فم صغاري سِنة تشق اللثة، عندها كانت الأم تخفي الخبر عن جيرانها حتى لا يُحسد الولد، ويتم التستر على سرنا الغالي كأنه من الأسرار الحربية! فنرقبه في لهفة من لديه حقل ينبت بالمحصول الجيد، ويخاف عليه هجوم الضواري وغارات البوم، والحدآت، والغربان.

كانت الحرارة ترتفع في الليل فنحزن، ثم نتقاسم حمل الطفل، وندوربه في فضاء الغرفة ليمتنع عن البكاء...

من قال إن الأم وحدها تشقى؟... الأب يشقى ويسعد مع الأم بدرجة أقل، لكنه في النهاية يتحمل نصيبه.

هل أُحدِّثكم عن الحبو؟ وانتظار الخطوات الأولى حيث يتم عمل شارع تجريبي من المساند والحشايا، وحين يقف الطفل ويتهيب المشي؛ تمتد يد حانية لتدفعه في حنان بالغ، فينهض الولد حذرًا متخطيًا خوفه، وترتفع الأكف في تصفيق، كأن الولد قطع المانش سباحة، لكنها أفراحنا الصغيرة (كما كان يقول لنا شاعر صديق هو محمد علوش) وبدونها تفتقد الحياة المعنى.

يحيى الصوفي:

(ممبا) عمل أدبي رقيق أهاج حنين الأيام الخوالي... شكرًا لك.

استوقفني في ردود القاص المبدع يحيى الصوفي، تلك الرؤية التي تلم شعث العمل، وتؤكد ما سبق أن قلته مرارًا من أن المشروع الأدبي ليس نصًا معلقًا في الفراغ، بل لابد أن تكون خلفه مرجعية فكرية، ووجهة نظر تشمل الكون، وتستبصر مفردات العالم.

قد يتوقف قارئ أمام بعض التفصيلات في النص، وسوف يكون من العسير عليه أن يدرك المغزى ما لم يكن قادرًا على فهم وجهة النظر التي يستتند إليها الكاتب، وهي - أي وجهة النظر- تسري في النص خلال تشكيل العمل الفني، وتخليق المادة السردية بحكمة ووعي ويقظة.

هذا ما توفّر لي مع ردود يحيى على المتداخلين معه حول النص، وهي نقطة أردت تسجيلها في حينها، فلطالما سمعنا من معلمينا وروادنا: اقرأوا في الفلسفة، اطلعوا على الأديان المقارنة، استوعبوا التاريخ، تصفحوا مدارس علم النفس، زوروا معرض الفنون التشكيلية، اذهبوا لدور السينما، استمعوا للموسيقى شرقية وغربية، واستمتعوا بها...

النص كائن بما فيه من لغة وعلاقات وسرد وأحداث وإيقاع. النص أيضًا تشكله أصابع من استوعب حكمة الحياة أو حاول أن يفهمها...

شكرًا يحيى الصوفي... شكرًا لأصحاب المداخلات.

••••

أقول إن القصة جيدة وبها مناطق وصفية رائعة... الأستاذ يحيى الصوفي كاتب متمكن وهو ينقض على فريسته (الفكرة) ويحولها في التو لعمل فني مختلف... وفقك الله.

- (منصور كامل)

••••

تحية لك أستاذ يحيي ولهذا المخلوق الجديد (ممبا)... كانت إشارة ذكية وسرد جميل، حتى أنني كنت أتوقع أو هكذا توقعت أنك ستشطح نحو الخيال العلمي، لمنح الرجل نعمة الإنجاب بخيال علمي.... تحية لك.

- (محمد البشيِّر)

••••

ممبا رمز جمعي لكلمتين أراد الكاتب من خلالها الجمع بين حنان وتعب وشقاء ومتابعة واهتمام كل من الأم والأب بطفلهما، وفي مقدمة القصة إشارة هامة جدًا «لم تمنحها الحياة فرصة حمل طفلها بأحشائها لتكسب بعضًا من الاحترام الذي تستحق».

في القصة إشارتان:

الأولى: تعلُق الطفل بأُمه منذ خلقه الأول.

والثانية: تعلُق الطفل الشاب ابن العشرين عامًا بأبيه... تلك اللقطة الذكية التي أوحى بها الكاتب من دون أن يفسِّرها (لو كان بإمكانه أن يزيح الجنة ليضعها تحت قدميه) وثمة آباء يمنحون أطفالهم عصارة حنانهم وهم يتابعون كل دفقات الحياة في نموهم ولكن بصمت.

قصة جميلة فتحت شبابيك ذاكرتي على حنان والدي الكبير... أحييك أستاذ يحيى، وأشكرك.

- (سها)

••••

في رأي تبدو خصوصية المبدع من قدرته على استثمار مشروعية الاختلاف المكفولة للجميع... ونلمح هنا نوعًا متميزًا من التجديد والتجريب القصصي لنصبح بين نارين:

هل هذا من قصص الحياة أم الحُب؟... أم هي قطرات ندى؟

الجميل أنها نزهات فكرية تستحق التوقف عندها.

ممبا عرض شيق من الأستاذ يحيى ولغة راقية لمشاعر نابضة بالصدق «وعندما استرق أولى نظراته الزائغة من خلف جفونه المرهقة محاولاً تفحص محيطه الجديد كانت هاهنا تستقبله بكل نعيم من ساهم في وجوده!».

الحقيقة البسيطة في علاقة الأمومة والأبوة في حكمة الخالق حيث وصي الأبناء بالآباء وجعل وصاية الآباء غريزية سبحانه وتعالي.

سيدي، انظر في الشارع ترى الأم تسير والأب يحمل الوليد في حنو غريب... وأليس الأبناء مصدر الكثير من معارك الحياة؟

هي الحياة جميلة كما هي وأجمل ما فيها الأدب.

- (الشربيني المهندس)

••••

المبدع يحيى... تطالعنا بقصة لها طعم البراءة: ماما + بابا = أبوة وطفل... متعة وإثارة.

قصة ممزوجة بحلم له أرضية واقع وفضاء الذاكرة الممتدة حتى نخاع الحقيقة... دمت مبدعًا.

- (د. أسد محمد)

••••

شكرااااااااااااااااااااا على هذه المتعة التي منحها لنا نصك (ممبا) أيها الصوفي الحي...

هنا كانت فلسفة خطيرة رسمت بحرفية بين أسطر هذه القصة.

- (فلاح رحيل الشمري)

••••

رااااائعة!!! ما أحلاها! قمة الحنان الأبوي.

تصدق يا أخي المبدع يحيى... والله إن أبي أشد حنانًا من أمي، وهذا من تجربتي الخاصة، فليس للحنان جنس... صحيح أن حنان الأم رائع وجميل ولا مثيل له، لكن حنان الأب أحلى وأروع وأجمل! هذه وجهة نظري... ربما أنا متأثرة بأبي!

مع جزيل الشكر على إرسال هذا النص الجميل. لديك قدرة على ابتكار العبارات المشوقة الدافئة.

أشكرك مرة أخرى على إعطائنا فرصة التمتع بنص رائع كهذا... أحببتُه، وأظنني سأحتفظ به لأقدمه لزوج المستقبل عندما يرزقنا الله أطفالاً بإذن الله

ومبارك ابنك البكر.. وجعل الله أيامكم سعادة، آمين.

- (حياة قائد)

••••

أخي يحيى... يحفظك الله في بلاد الغربة...أعدتُ القراءة، وكل مشاعري، وأنا أتقلب في رحم أمي، في عالم رغم ضيقه كان رحبًا... وما أن وصلت إلى عبارة «يزيح الجنة ليضعها تحت قدميه...» انهالت عليّ أطياف من ولدت حقيقة في نبضي بين ذراعيها، فكان تقلبي خارج أحشائها... بل على أحشائها... هي جنة الدنيا... تحيط بي ابتساماتها، وهمسها أغصان تظللني، تفتنني، وتغريني.

دومًا مورقًا بالياسمين يا صديقي.

- (سليمان القحطاني)

••••

- ردود على تعليقات قصة: ممبا

بقلم: يحيى الصوفي

أخي الأستاذ سمير الفيل، سعدت بمرورك وكلماتك حول الحكاية، التي تحولت إلى قصة قصيرة تدغدغ ذكرياتنا الحلوة حول علاقة الابن (الابنة) بأمه أو أبيه... ودعني أساهم في نبش هذه الذكريات ببعض الفلسفة التي تعودت عليها... فقد أستطيع من خلالها إعطاء لمحات ولو بسيطة عن الطريقة التي أعالج بها تلك الذكريات (الهموم) -إذا أحببت تسميتها- وسأقوم بتجزئتها وأضع كل واحدة منها كردٍ على

مشاركة أحد الأصدقاء (زوار وقراء) هذه القصة.

فلقد بدأتها «أن يبقى طفلاً وهو على مشارف العشرين من العمر، يتلمس الحنان والاهتمام منها وكأنه لم يبارح طفولته بعد؛ هو أقل ما يمكن له أن يفعله ليحافظ على توازنه وتسامحه وعنفوانه!» لأشير إلى البراءة التي يتحلى بها، وتمسكه بطفولته لما تمنحه تلك الطفولة من قوة وعزيمة، ومقدرة على مواجهة الحياة، دون أن يفقد توازنه وتسامحه وعنفوانه... إنها الجرعات التي نحتاجها -والتي لا غنى عنها لأي منا ومهما بلغنا من العمر أو المراكز الاجتماعية- وفي كل يوم، لكي نحافظ على تلك الشعرة البسيطة الضعيفة (شعرة معاوية كما يسمونها) التي تصلنا بمحيطنا ومجتمعنا وتنظم علاقتنا بالآخرين (الغرباء عنا في الطباع والتربية والثقافة) دون أن تنقطع.

فهذه العلاقة (التي تبدأ لحظة الخلق في الرحم) وكل ما يتبعها من اهتمام وحنان وتربية هي مرجعية أي منا، والبوصلة المركزية التي تدلنا على الجهة التي علينا تتبعها في حل كل المعضلات التي تواجهنا مهما كانت صعبة ومستحيلة... لما تختزنه من تجربة وخبرة تتوج دائمًا بالثقة المطلقة.

فلا أحد يمكن أن يشك للحظة واحدة بالحب الوحيد المطلق والأزلي والصدق فيه النابع من قلب أم.... فالكل يخدع، والكل يكذب، والكل يخون الأمانة ويلعب بالمشاعر ويلحق بنا الضرر... إلا الأُم، فهي الوحيدة التي تملك الصدق فيما تفكر وتقول وتفعله معنا.

ومن هذا المنطلق تبدو هشاشة وقوة علاقة الفرد مع المجتمع، متمثلة بهذا الكم الهائل من الاهتمام والحنان الذي منح له...

فمن منا لا يسمع صدى عبارات التسامح أو التشجيع أو التحذير في كل أمر نتناوله ونخوض فيه؟... إنها ذاكرتنا الجماعية ووجداننا وناموسنا الفطري الذي نتحسَّس به طريق ومشوار حياتنا بثقة مهما كان مظلمًا.

ومن هذا المنطلق أخي الوسيم د. أسد محمد نجد بأن العلاقة (ماما+ بابا =أبوة وطفل) وأنا أُضيف (أمومة وطفل) كما ألمحتَ إليه في تعليقك، ليست حتمية، فلكل قاعدة شواذها... وأنا هنا لا أتناول شواذ القاعدة... وهم كُثر ويثيرون الرهبة والخوف، وفي بعض الأحيان القرف!... لأن نظرتي إلى الذكر والأنثى (أب وأم) تتجاوز الشكل المادي والثوب الدنيوي الذي يلبسونه لارتفع به إلى القمة... إلى الروح.

وهذا مرده -ربما- لإيماني بأن الإنسان بشقيه (ذكر وأنثى) يتمتع بنفس المقدرة على العطاء ولو ببعض الخصوصية التي تميز أحدهما عن الآخر، والتي تشبه إلى حد ما لمسات فنان موهوب بالفطرة، وآخر يمارسها بالتعلم وبحكم الضرورة والأمر الواقع... وقد لا يختلف إبداعهما في ممارسة دورهما إلا بالمرونة أو الصعوبة التي يلاقيانها.

وما يهمنا منهما في النهاية هو النتيجة التي توصل بذلك المخلوق الضعيف (الطفل) إلى بر الأمان... خاصةً وأننا نعيش عصر زجاجات الحليب الاصطناعي وحاضنات (المربيات ذوات اللكنات واللهجات واللغات والعواطف الغريبة) مرتزقة تتعامل مع الطفل وكأنه حيوان منزلي أليف يبعده عن مصادر قوته ونقاط ارتكازه الوحيدة التي يحتاجها في حياته، كحق طبيعي له يمنحه السعادة والكمال.... وقد يجده في أب

يعيره اهتمامًا إضافيًا عما هو مخصص له، بحيث يوجد له ذلك الحضن الدافئ والصدر الحاني والدعة الأنثوية المفقودة.

وهذا سبب ما أخذت به يا صديقي العزيز الأستاذ محمد الشربيني بقولك (مشروعية الاختلاف المكفولة للجميع)، وأنا أوافقك عليه تمامًا، وذلك لأننا لم نعد نلمس حولنا تلك الأم التي تعتني وتربي وتغدق الحنان على أطفالها بشكل مجرد وبمعزل عن تصفيات الحساب التي تمارسها إذا ما تعرضت للأذى أو المهانة أو الاهانة من أب (ظالم) غير مسئول لتصب جام غضبها على بريء!

وأنا ها هنا أتساءل: كم أُم في هذا العالم تشبه أمي؟... كم أُم يمكن أن ترضع طفلها الذي يحمل رقم الثالث عشر بين أطفالها، ولأكثر من عامين دون أن تمل أو تكل أو تصاب بالإحباط أو الفتور؟... فتستقبله فرِحة وكأنها تستقبل أول أولادها، فلا تشمئز من قيء يصبه عليها -بعد أن تكون قد انتهت من زينتها وتعطرها- أو أنين أو مرض أو شكوى... تشجع نهوضه الأول على قدميه، وتصفق له بروز أولى أسنانه، وتظهر له إعجابها به وغبطتها عن كل عمل ايجابي يؤديه... فلا تترك مناسبة حسنة أو سيئة إلا وأخذت زمام المبادرة فيها لتدير إخفاقاته أو نجاحاته بمنتهى الحرص والمسؤولية... فتلازمه طفولته، وتحرص عليه في فتوته، وتصادقه في شبابه... فيكون طفلاً حيث يكون، وصبيًا فتيًا حيث يجب أن يكون، وشابًا تفخر به متى يكون...

وفوق كل هذا لا تميز بينه وبين من سبقوه في العطاء، فهي نبع من الكرم والحنان لا ينضب...

كم أُم في هذا الكون تشبه أمي ؟

إنها هي (ممبا) يا صديقي تلك الأم التي كانت تقرأ عليَّ تسامحها وكرمها وعفتها وكبرياءها، من خلال تصرفاتها اليومية المعتادة التي تمارسها... فلا أذكر أن رأيتها يومًا كئيبة أو حزينة أو مضطربة، رغم كل نوائب الدهر وعثرات الزمان التي مرَّت بها... ولم أشهدها يومًا إلا وهي بهية الطلعة مكتملة الزينة، حاضرة ها هنا ومع شروق كل شمس وإطلالة كل نهار، وعلى شفتيها عبارات الشكر والحمد لله.

أما مداخلة الأخت المبدعة سها واعتبار (ممبا) رمز لزمنين منفصلين (الطفولة المرتبطة بالأم، والشباب المرتبط بالأب) فهي تأخذ بالقصة إلى أبعاد أخرى لم أقصدها... (فممبا) هو أي أب أو أم يقوم أي منهما بدوره كاملاً... ويتجسد هذا الدور بالعناية بالطفل أو الطفلة، وتربيتهم وتعليمهم على خوض الحياة بخصوصية وتميز كل منهما.

ممبا هي أم حاضرة بغياب الأب، وأب حاضر بغياب الأم (جسديًا أو معنويًا) ويجسِّد أي منهما حضور الآخر بمنتهى التسامح.

وهذا يقودني إلى تساؤل أخر مرادف لتساؤلي السابق:

كم أب في هذا الكون يشبه أبي ؟...

كم أب في هذا الكون يترك مكانه المعتاد في فراشه لطفله الرضيع بعد أن يطبع قبلة الرضا والبهجة والتسامح على وجنتيه، وكأنه هو من يتمتع بذلك الدفء والحنان، ويغادر غرفته على رؤوس أصابعه وكأنه فاز بأجره وجنته ؟...

كم أب يمكن أن يتحمل نزوات ونتائج مغامرات أولاده، دون أن يرفع يدًا لهم بالضرب أو لسانه بالسب؟

وكان يبدع في مناوراته التربوية فيخلص إلى النتائج التي يرغبها، دون أن يفقد هيبته أو احترامه، أو يعرض كبرياء أولاده وافتخارهم بأنفسهم للإساءة...

كم أب يشبه أبي (وهو الذي ينتمي إلى القرن الماضي)، فيتيح لوالدتي بتسامحه مصاحبتنا إلى دور السينما، لنكتشف العالم الزاهي الباهي المتحرك لأول مرة في حياتنا؟

فكان حاضرًا من خلالها... يعلمنا الشجاعة كيف تكون والشهامة كيف تدرك... ولهذا كنت سأستعير الجنة لكي أضعها تحت قدميه، لولا أنني اعتبرته في النهاية جزءًا لا يتجزأ من خلية وروح وطبيعة إنسانية واحدة... ففضلت أن أزيحها لأضعها تحت قدميه، لأنها بالنهاية لم تغادر أيًّا منهما... فهي في المحصلة دور ومكانة واحدة، حفظه العمل الذي يقوم به أي منهما وليس موروثًا حكمًا لجنس معين.

وقد سعدت باستقبال الأخ محمد البشير لمبا كمخلوق جديد... بل هو كذلك، وأنا لا أحتاج قطعًا إلى الشطط بالخيال، لأمنح هذا الرجل المقدرة على الإنجاب، لأنه هو بذاته مخلوق مثالي يجسد المعنى النبيل السامي للخلق الأول... إنه آدم الذي ملك صفات الذكر والأنثى قبل أن تنفصل حواء عنه، وتأخذ معها بعض من خصائص الأنثى الذي حملها... إنهما معًا (آدم وحواء) قبل أن يرتكبا الإثم وتظهر أدوات تكاثرهما وتميزهما وتكرس انفصالهما عن بعض... إنها العودة إلى الكمال... إلى النبع... إلى الوحدة الروحية والجسدية كما أرادها الله لنا.

أنا لم آتِ بجديد سوى أنني أعدت الاعتبار والاهتمام لمن يستحق.

والمرأة (الأم) عندي هي تلك التي تتحلى بالإضافة إلى أنوثتها ورقتها، تلك الشجاعة والحكمة في تلقي الصدمات دون أن تسقط.

والرجل (الأب) عندي هو ذاك الذي يتمتع بالإضافة لشهامته وقوته للرقة والتسامح والعطف دون خجل أو حياء من أن ينال ذلك من كبرياءه. وأكبر مثال لنا سيرة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

••••

تعليقات و آراء حول قصة: (الحُب العُذري)

لا أدرى ماذا أقول... وصف جميل جدًا لحنان الأم وحُب الأخت... كلمات مفعمة بالصدق والعرفان... مشاعرك صريحة نابعة من قلب حساس وروح شفافة... أحاسيس المراهقة مرهفة صادقة ونبيلة، تخلو من الزيف والخداع، مليئة بالألم والحزن... فأول تجربة في حياتنا يكون لها وقع مؤثر لا يزول، ويبقى راسخًا في الذهن كذكرى جميلة حزينة... نتمنى دائمًا عودة ذلك الإحساس الصادق.

لوحة جميلة جدًا... كل الود.

- (سناء)

••••

ربما لا يعترف الإنسان سوى بقصة وحيدة، لأنه عادةً ينسى سواها... فالقصة الأصدق هي التي تدوم في الذاكرة، وربما لكونها لم تتخط حاجز الأفكار العفوية، ولم تصطدم بأرض الواقع، يكون كل ما فيها جميلاً ومثاليًا، فتدوم في الذاكرة إلى الأبد... تحياتي.

- (محمود حنفي)

••••

نجد المرأة في حياتنا كالنار... لا حياه بدونها... لكن القُرب منها حارق.

- (محمد العبادي)

••••

قصة فيها إسهاب لتعريف هذا الحب عبر تجربة ذاتية كما هُيئ لي... والمرأة هي الرصيد والعنصر والأداة لهذا الحب، ولم تعرف الرجل إلا في النهاية، وكأنه يبحث عن حب آخر.

حسنًا، أوافقك الرأي، لكن أقول إن الحب ليس له تعريف، مع الإشارة أنه يمكن تعريف الرجل والمرأة وكل مخلوق آخر... الحب يعرفنا.

- (د. أسد محمد)

••••

«وجعل بينهما مودةً ورحمة»... هل هي الشفقة على الآخر؟ أم الشفقة على النفس من عذاب قد يأتي ولا سبيل للشفاء منه إلا اللقاء والغوص؟

هل للحُب العذري تعريف واضح المعالم؟ أم أن الهرمونات تؤثر على الأمر أحيانًا وتعتقل الذهن فيحصل فقدان التوازن العقلي مع العاطفي؟

أحببتها مرة وعشقتها مرات... ثم رماها عقلي باقتناع أبي، ما

هذا الهراء مني؟! وما هذا العذاب النفسي الذي يحصل عندما يتوقد الإنسان شعلة من الأحاسيس لا يعرف للحياة وجهة إلا القلوب!

طرحك جميل... تحياتي

- (ريان الشققي)

••••

العزيز يحيى الصوفي... تحية لك... جميل وصفك لهذه المشاعر مع الأنثى (الأم والأخت والصديقة والزميلة... والحبيبة)... لكن هل من وصف دقيق للحُبّ؟

الحُب هو الصمت، والصمت هو الجنون، والجنون هو التّلهف للمرأة، والمرأة هي الحب... إلخ. «فالصمت هو من كان يخطف الزمان والمكان ليحملنا إلى عالم الغيب ويلقي علينا بثوبه السحري فنذوب مع الأشياء التي تحيط بنا حتى نختفي تمامًا عن الأنظار!!... أو هكذا كان يخيل لنا!).

- (صبري رسول)

••••

- ردود على تعليقات قصة: الحُب العُذري

بقلم: يحيى الصوفي

- الصديقة نور الأدب...

أليس هو ذلك الحب الذي لا سلطة لنا عليه؟!

مع فائق تحياتي.

- العزيز صبري...

وأنا أضيف على ما ذكرتَ هذين السطرين «عرفت بعدها بأن حب المراهقين أكثر صدقًا وعفوية وبراءة، وبأن القصائد التي كنت أقرؤها عن الشعراء العذريين لم تكن وهمية، وبأن البطل فيها يغفر لحبيبته كل هفواتها، ولا يرى فيها رغم مرور السنين إلا لحظات السعادة التي غمرت قلبه وحفرت في كيانه!». أليست حقيقة إننا نغفر لمن نحب (في تلك الفترة) كل الأخطاء والهفوات حتى أننا لا نراها بتاتًا؟... وهذه هي معجزة هذا الحب وغرابته.

يجب أن أتوقف حتى لا أبالغ في أمر مفرغ منه... تحياتي ومودتي

- الأخ رائع الكلمة والحرف د. أسد...

شكرًا لمرورك، أعرف بأنك أحسن مني في هذا! لأنني قليل الحيلة في التعليق عما يقع تحت نظري من قصص.

أعود للحب العذري وأنا أوافقك بتحليلك، وأضيف بأنني لا أعرف إلى الآن دوافع كتابتي لهذه القصة، ربما البحث عن هوية هذا الحب الغامض، بحيث وكما هو ظاهر بدأت بالأقرب إلينا: الأم والأخت والقريبة والصديقة وابنة الجيران، وصولاً إلى الحبيبة الحقيقية والحب الحقيقي (العُذري) والذي غالبًا ما ينتهي بالفراق... ولهذا يبقى عذريًا، وإلا لأخذ اسمًا آخر.

أما الإضافات التالية فهي نوع من الشطط في تفسير أنواع الحب الأخرى، التي نتعرف عليها في مراحلنا التالية (زواج) أو من خلال علاقات عابرة (كالإعجاب والاهتمام بالطرف الآخر) والذي قد يخبئ حبًا خلفه ولكن (حب محرَّم) لأننا نكون قد وصلنا لمرحلة الإحساس بالمسؤولية والتمييز بين الصح والخطأ.

وأخيرًا من منا لم يزل يبحث عن ذلك الحب الطاهر (العذري) الخال من المصلحة؟

كل المودة.

••••

تعليقات وآراء حول قصة: (المُراهِقة)

الفاضل يحيى الصوفي... ما قرأته خلف النص هو التفاوت الرهيب بين ثقافتين، فردانية غربية مطلقة، وروح الشرق المتمسكة بالقيم، والملحة على تمسك الإنسان بإنسانيته.

لتقاط جميل، وكان سيكون أجمل لو عمد إلى القليل من التكثيف.

سعدت بقراءتك.

- (عبد الله البقالي)

••••

في النص طيش المراهقة ودفء العواطف البكر... فيها تعبير عميق عن الاختلاف الثقافي بيننا وبين الغرب، في تفكيرهم بالحب والانطلاق والحياة التي لا تحكمها ضوابط معينة أحيانًا، وبين ما تفرضه علينا عاداتنا وتقاليدنا وديننا في المرتبة الأولى.

أعجبني النص كثيرًا... أتمنى أن أقرأك دومًا.

- (جنات بومنجل)

••••

ما يزرع اليوم يحصد غدًا بالتأكيد... فارس بحق كان هذا البطل. ليته يخلع رداء الورق، لتسري به دماء الحياة بدلاً من حبر القلم.

لن أطلق تساؤلاً بالمطلق وأقول أين شبابنا من هكذا فكر وموقف، في حال استحالت القصة حقيقة،... لأني على يقين بأن هذا التيه ما زال ذاخرًا بالخير والإحسان. لذا سأكتفي بشكرك كاتبنا العزيز على الإضاءة الجميلة.

- (لينا الغديري)

••••

الله يا يحيى جميلة جدًا... استمتعت بمتابعتها حتى أخر حرف... شكرًا لقلم من ذهب.

- (إيمان الكوز)

••••

يتملكنا أحيانًا شعور بالجنون، لعمل ما هو غير مألوف، نرى أن فيه سبيلاً لسعادتنا... ولكن هي لحظات... وعندما نستفيق على نبرات العقل، نقول بأننا قد مررنا بلحظة مراهقة.

قصة جميلة فيها المتعة والفائدة... مودتي.

- (Red Rose)

••••

العزيز يحيى: تحية طيبة.

فكرة جميلة، ودخولك في عوالم الشخصية من خلال بيان اتجاهاتها وميولها شيء جميل.

- (صبري رسول)

••••

الأخ يحيى... جميلة... الولوج لعالم مراهقة (غريبة) وأقول غريبة إذ أنها لم (تتردد) في التقبيل والعناق، والهروب... وأقول مراهقة لأنها لم (تتردد) أيضًا في وهب قلبها، والتعامل بصبيانية مع الموقف الجدي، على الرغم من إيمانها الكامل بأنها مسألة حياة أو موت!... والحب الوحيد...الخ.

رؤيتان....(أنت تحبني ..أنت لا تحبني) هنا المبدأ... فقط إما معي أو ضدي.

ربما الجزء الأخير في القصة شعرت بأنه أثقلها قليلاً، وأخذ مساحة واسعة (لم أقل أحذفه) على الرغم من أنها ناقشت نقطة حنين (مغترب).

على فكرة الجملة بين القوسين في تعليقك الساحر، جميلة ومعبرة.

دمت بود.

- (نورة عبد الله)

••••

- ردود على تعليقات قصة: الـمُراهِـقـة

بقلم: يحيى الصوفي

- الأخت الصديقة إيمان الكوز:

إن كان في تتبعك لكل حرف من حروف هذه القصة من متعة مهما كانت بسيطة، فلأن بكِ؛ بنا جميعًا؛ بعضًا من براءة المراهقة، التي لا تعترف بسذاجتنا،تسرُعنا في اتخاذ القرار... واعتبار تصرفاتنا مهما كانت متطرفة هي الصحيحة.

قد نصحو يومًا ما، لتفقد المكاسب والخسائر التي حصلنا عليها، وقد نجد ما عشناه جميلاً ساحرًا إذا ما كنا محظوظين بمن عرفناه وأحببناه وكان عفيفًا بحبه صادقًا... أو نحمل آثار هذه اللحظات البريئة، تشوهًا في النفس وفقدان ثقة بالآخرين تعيش معنا للأبد.

- الأخت الصديقة لينا الغديري:

قِلة ممن قرأوا القصة التفت إلى العبرة التي تتضمنته نهايتها... البعض اعتبرها حشوًا زائدًا لا حاجة بنا له... بالرغم من أن المحور الرئيسي الذي بنيت عليه هذه القصة، هو تحليلك المختصر (ما يزرع اليوم يحصد غدًا بالتأكيد)، ذلك لأن أخطر المراحل التي يمر بها أي كان منا هي تلك المرحلة... خاصةً في البلاد العربية التي بدأت الأجيال الجديدة فيها تأخذ في تقليد الغرب في قشوره التي بدأت تقضي على شبابهم، وعلى ثقتهم بأنفسهم وتأسيسهم لعائلاتهم!... وفيما هم

ينظرون إلينا بغيرة وحسد على الحياة المحافظة والتقليدية في الخطبة والزواج (لأنهم لا يعرفون بأن مجتمعاتنا سبقتهم بالإباحية المقنعة) نركض نحن خلفهم لنقلدهم بشكل أعمى في الانحلال الخلقي (المصاحبة، وزواج فريند) وكأنه لا يوجد بالكون مشكلة إلا مشكلة الجنس!... للأسف الشديد.

وأستطيع أن أقول بصراحة مطلقة، بحكم إقامتي في الغرب لأكثر من ثلاثين عامًا، بأن خطر الحرية والإباحية والمصاحبة أكثر ضررًا على الجنسين من المحافظة على القيم.

ما ينقصنا هو الوعي والثقافة العاطفية (الجنسية) ليبني كل خطيبين أو زوجين حياتهما العاطفية بشكل سليم. ذلك لأن حلم الفتاة والشاب بتجربة المعاشرة دون قيود، والانتقال من حضن إلى حضن كما هي حال البلاد الغربية، تترك أثارًا سلبية عميقة وخطيرة جدًا على سلوكهم... لأن الخبرة لا تأتي أبدًا من خلال الممارسة (خاصةً إذا كان الطرفان جاهلين... وهما في الغالب كذلك)، ولكن من خلال النصيحة والتوجيه والتثقيف.

ولهذا تفشل حياتهم الزوجية وتتفكك الأسرة... وتضيع الأصول في مهمة البحث عن حل.

قد أكون قد أطلت... ولكن هذه المشكلة... المراهقة هي الباب إلى سعادة أو تعاسة أي من الطرفين بمقدار ما تتركه من أثر عليه... قد يحمله ويدفع ثمنه (غالبًا البنات) طوال حياتهم.

- الأخت الصديقة جنات بومنجل:

أشكرك متابعتك وتعليقك على القصة... وأنا لن أخفى عليك بأن أحداثها حصلت في السبعينات، وهي تعتبر الحقبة المهمة

في التحرر الجنسي في فرنسا، والانتقال من مفهوم المشاركة إلى مفهوم الاستقلال في القرار، بالإضافة إلى ظهور الحركة النسائية وكل مع تبعه من تطور في القوانين.

منذ فترة عرض التلفزيون الفرنسي برنامجًا خاصًا عن العزوبية والعنوسة في فرنسا، قدّر عدد العازبين فيها بـ ١٦ مليون عازب وعازبة... والغريب في الموضوع بأن البرنامج قدَّم زوجين مخلصين من القرن الماضي أعمارهما تجاوزت ٨٥ سنة تكلما عن حياتهما المشتركة وزواج دام أكثر من سبعين عامًا، أي تعرفا على بعضهما وتزوجا وهما في سن السابعة عشر!

والغريب في الموضوع أن الجمهور في غالبيته كان يصفق ويهنئ الزوجين على هذا الإخلاص وهذا الحب... وإن دلَّ هذا على شيء، فإنما يدل على أن الجميع كانوا تواقين لأن يعيشوا نفس التجربة ونفس الإخلاص ونفس الحب... ولكن بشروط لا تتفق وهذه النتائج!

وهذه هي حال العالم العربي للأسف الشديد... نركض خلف الغرب، وندفع ثمن أخطاء الغرب، وثورة الغرب، بالرغم من أن الجميع يتمنى أن يعيش تجربة زوجين مخلصين وللأبد تتوفر كامل شروطهما في ديننا الحنيف.

- الأخ الصديق صبري رسول:

شكرًا على مطالعتك للنص والتعليق عليه؟

المهم سأتكلم بالنيابة عن الغائبين، لأنني خير من يعرف النص.

كان من الممكن على سبيل المثال أن أحتوى هذه القصة بالمشهد الأخير منها (اللقاء بالفندق) وهكذا اختصر الزمن إلى

ساعة أو ساعتين بدلاً من يومين...

وكان من الممكن أن أخصم النهاية وتشبيه أمها بأمي لأنها بذلك صارفيها فذلكة أخلاقية لسنا بحاجة لها...

وممكن جدًا ألا أتناول اندفاعها غير المعقول تجاه شاب لا تعرفه، وسرقة قبلة من شفتيه، فهذا يتجاوز الأخلاق...

ماذا بعد؟... دعني أفكر قليلاً...

آه، ممكن أن تكون الفتاة قد تخيلت كل هذا أثناء قيلولتها فنختصر القصة بسطر كالاتي «سمعت نبضات قلبه تخفق في أذنيها... وعندما تلمست الوسادة لم تجده!».

ما رأيك؟ قصة قصيرة معبرة ووليدة اللحظة دون تخطيط؟

على كل لا أستطيع أن أعيد عقارب الزمن فلقد بحت بما عرفته عنها، عن مراهقتي، وأنني وكلما تذكرتها أتساءل إذا ما كنت حقًا قد أخطأت أم أنني أصبت... لأن كل الأحداث التي جرت بعدها لم تؤكد صواب أي منهما!

- الأخت نوره العبد الله:

في الحقيقة أنا أعتقد بأن المراهقة عند الجنسين واحدة عند كل الشعوب، لا تنقص ولا تزيد... لأنها مرتبطة أصلاً بالتطور الطبيعي للإنسان، ومرحلة انتقاله من الطفولة إلى الشباب وللهرمونات أثر بالغ فيها.

وعادةً ما تكون هذه المرحلة وتلك العواطف، من أصدق العواطف وأنبلها، لأنها لا تختلط أبدًا بالمادة، ولا تتكلم عن المستقبل، أو تخوض في مسائل اللون أو العرق أو الدين... إنها مشاعر صافية ونقية وطاهرة وخالية من المصلحة، وقلة هم

من يتمكنون من إتمامها بزواج لأنهم سيكونون أسعد خلق الله على الإطلاق... فطوبى لهم إن وجدوا.

ولا أظن بأن أي فتاة -مهما اختلفت العادات وتنوعت التقاليد- تفكر بلحظات الحب، والحب من أول نظرة بالذات (خاصة فترة المراهقة) بالعيب أو بالحرام أو بترتيبات زواج أو مستقبل... لأنها تكون في تلك اللحظة واقعة تحت تأثير الصدمة (يسمونها الفرنسيون «ضربة الصاعقة» لأن الإنسان يفقد وعيه وبصره وبصيرته).

وتلك المشاعر والأحاسيس الطاهرة والبريئة عادة، لا تتصل بأي تفكير جنسي، بل بشاعرية وحلم يتجاوز المعقول.

والمصيبة أن تقع الفتاة الحالمة العاشقة بين يدي شاب لا يشاركها مشاعرها، ويستغل تعلُقها به لابتزازها، وجرّها لأفعال وتصرفات، تقتل وتشوِّه اللحظات الحالمة النقية التي تمنتها... فتضطر إلى حمل نتائجها الأليمة طوال حياتها.

ولهذا كانت إضافتي الأخيرة بتشبيه أمها بأمي لأنني لم أحبب أن أترك في ذهنها إلا لحظات البراءة والطهارة والنقاء الذي اختارته، لتعيش ما تبقى من مراهقتها بأمان، وتحفظ من لحظاتها ذكريات ود تستحق أن تُسمى حبًا (عذريًا إذا شئت).

لكِ كل المودة وشكرًا لمساهمتك في إلقاء الضوء على الفرق بين الغرب والعرب في هذا الموضوع... وقد يكون للحديث بقية.

••••

تعليقات وآراء حول قصة: (سقوط الآلهة)

«لقد لوّث بمغامرته هذه ذكرياتها الجميلة وكل الصور الرائعة التي جمعتها له في وجدانها!... ومزّق رسائله، وأتلف كل الورود النضرة، وأحرق أجمل الكلمات التي حفظتها له في قلبها...».

وكم من الذكريات الجميلة والصور الأخاذة تتلف في لحظة ننسى فيها أنفسنا...

يحيى... أجمل تحية صباحية على هذا العمق.

- (آيــة)

••••

هيَ اللهفة والشوق... تحول -بفعل الزمن- إلى رجل بسيط وتافه ككل الرجال... كانَ عليها أن تؤمن بأنّه يحمل في داخله رجلاً، وأنّه ذات اشتياق سيطلق له العنان.

لك التحية أخي يحيى.

- (محمود الحسن)

••••

إنه يسقط دائمًا عن عرشه، ذلك الرجل المشبع بالشبق ككل الرجال، ليصل في النهاية إلى حضيض الجسد... وهي ما زالت

تترفع بدفء الشوق ورومانسية غابت عن عالم العشاق... أرثي لها لأنها لم تكتشف تلك الحقيقة إلا متأخرة، وبعد ضياع العمر المنسي.

أستاذ يحيى... قلمك أكثر من رائع، قلم عبَّر عن واقع نعيشه بمرارة، وكنت أتمنى أن أجد كلمات كهذه... دُمتَ خلابًا.

- (Red Rose)

••••

أسلوب رائع وجذاب أيها الصوفي العبقري... ما دامت أعجبت الإخوة، خاصةً وأنت تسقط هذا النموذج على كل الرجال فسأسكت... لكن... أتمنى ألا يقرأها جارُنا «أبو محمد» (الدكنجي) لئلا يظن أنك تقصده بذلك، فيحجز أول مقعد أمامي في «الليبانيز إير لاينز» إلى جنيف، ليضرب عصفورين بحجز (زاي وليس راء) واحد.

دمتَ طيبًا.

- (النحفاوي معروف)

••••

«بفعل الزمن» يا لقسوة هذه العبارة يا يحيى، ويا لعمق دهاليزها... «بفعل الزمن»، قد تكون عادية، تمر علينا عشرات المرات دون أن نكترث لها بفعل العادة والتعود...

ولكن ماذا لو وقفنا قليلاً أمام الزمن وأفعاله بنا، أو ربما أمام أفعالنا بمرور الزمن؟

من خلال تجربتي الشخصية، أعترف بسقوط الآلهة (بفعل الزمن) كما أعترف بأن الآلهة ليست سوى أسطورة مهمتها أن تنمي خيالنا باتجاه الجمال، شرط أن نحذر الإيمان بوجودها لأنه مجرد خداع!

باختصار، الآلهة لا تسقط، بل تتعرى أرواحها - بفعل الزمن -.

يحيى الصوفي... تسرني متابعة حرفك على الدوام. لك التحية.

- (روعة عقل)

••••

وإن كنتُ أتحفظ على كلمة الآلهة... إلا أن النص هنا جميل للغاية ويلامس القلب بصدقه وعمقه.

- (شجاع القحطاني)

••••

إنه متحمس جدًا هذا الرجل الخمسيني، ونفسه حلوة والحق يقال... أن يحمل كل هذه الشهوة العارمة لامرأة خمسينية أعتقد إنها كانت مأخوذة بما يفعل، وبالتأكيد غير غاضبة منه، لأنه أعاد إليها في وقت حرج الثقة بأنوثتها...

إنه يذكرني بالشباب الخطرين، الذين أراهم في الحديقة العامة مصطحبين بنات من حملة الدبلومات، غاية في تواضع

الجمال، ولكن الكل سعيد.

قُل لهذا الرجل المتحمس يذهب هناك وسيجد بغيته.

- (د. أيمن الجندي)

••••

المبدع الجميل يحيى... اللحظة الأولى، الصدمة الأولى، البهجة الأولى، اللقاء الأول مع وجه الكلمة، مع الاشتمام الأول للفكرة يكون الصدق ومن بعده العقل، وما أدراك ما العقل!

أنت قدّمتَ نموذجًا لبطل من نوع المتمرد... وإن سقط في النهاية في المحظور، لكن هذه التجربة في الواقع موجودة، وأعرف حالة مشابهة لكن في الحقيقة متمردة.

الأهم في الكتابة هو الاتيان بالجديد، وهذا عين ما فعلته.

- (د. أسد محمد)

••••

العزيز يحيى... هواجس تغوص في نفس الرجل عندما يفقد توازنه أمام الحب الجارف، ليقطف ثمرة ينتظرها لكن بطريقته ((إنه وبكل بساطة يغتصبها وكما يفعل كل الرجال!)... تحية للوجوه الأربعة.

- (صبري رسول)

••••

- ردود على تعليقات قصة: سقوط الآلهة

بقلم: يحيى الصوفي

- الأخت عايدة النوباتي:

تحية طيبة وبعد... لقد سرتني مداخلتك وتعليقك على القصة، وقد أتفق معكِ لو أنني نظرت إليها وقرأتها بنفس العين ومن نفس الزاوية التي قمتِ بها!... حيث أنني تعودت ربما على رؤية الأمور العاطفية ورصدها من باب إنساني بحت بعيد عن البيئة والعادات والدين، بحيث أترك للقارئ وضع تصوره للحدث من خلال انتمائه... لأن القصة القصيرة لا تحتمل الكثير من التفاصيل، التي تتعلق بالحلال والحرام، وهل حدث اللقاء بعد الزواج أو قبله... الخ.

من ناحية ثانية، أنا أحببت من خلال هذه الوجوه الإجابة على سؤال جوهري ومهم وهو: ماذا يكون موقف أي من الحبيبين بعد إن افترقا كل منهم لحياته؟ هل يبدأ اللقاء فيما بينهما كما تعودا بشاعرية وصدق؟ أم يحاول كل منهما إظهار مهارته في الخبرة التي اكتسبها من الحياة، فيبدأ علاقته مع الطرف الآخر بجدية دون مقدمات؟

الوجه الأول يجيب على أولى إشارات الاستفهام من طرف أنثوي، وهي إنها اعتقدت بأن حبيبها يختلف عن الرجال الذين عرفتهم ومنهم زوجها، لأنه كان حبها الأول الذي يمثل الطهارة والعفة والبراءة، ولهذا مثلته واعتبرته كآلهة بالنسبة لها «كل الرجال إلا هو فلقد كانت تعتبره من صنف الملائكة...

بل وأكثر! فلقد مجدته وأحبته وعبدته كآلهة تمرح في معبده الرحب الطاهر المليء بالأفكار النقية بكل أمان... فقد كان مثاليًا جدًا معها وعفيفًا حد تمنعه عنها وهو في لجة عشقه ومراهقته وحبه لها!»... ولهذا وعندما اختبرته اكتشفت بأنه تحول إلى رجل ككل الرجال!

النقطة الأخيرة التي أحببتُ أن ألفت الأنظار إليها، هي أن الحب لا يعرف العمر... وربما وبحكم إقامتي الطويلة بالغرب، لم أستلطف القهر المفروض على المرأة عندنا، باعتبار ولمجرد أن تتجوز وتنجب وتتجاوز الأربعين، بأن عليها أن تمضي بقية حياتها بمعزل عن مشاعرها وقلبها وطموحاتها وأحلامها.

هذا بالإضافة إلى الظاهرة الجديدة في العالم العربي، وهي العنوسة وتأخر زواج الفتاة ربما لما بعد الأربعين، بحيث تقف حائرة ونادمة أمام خيارات قليلة لبناء حياتها ببعض العدالة، محرومة حتى من الإفصاح عن رغباتها تحت ستار العيب!

هي محاولة من طرفي كشفت من خلال الوجه الأول -حسب تصوري- عن بعض ما يختلج في قلوب الكثيرين... فهل ستجيب الوجوه الأخرى عن بقية الأسئلة المعلقة؟

••••

تعليقات وآراء حول قصة: (سقوط الأقنعة)

«وبالرغم من الجهد الواضح الذي بذلتْه لكي تبدو أصغر سنًا كما تركها، إلا إنها لم تستطع أن تخفي خطوط الزمن الواضحة على وجنتيها والكثير من البقع البنية التي بدأت بالانتشار في كل مكان حول رقبتها بالرغم مما أضافته عليها من مساحيق».

تظهر المرأة دائمًا بمعالم متغيرة على شكلها لتوحي بوجع السنين فوق جبهتها، وما كابدته من حياة رتيبة مع زوج وأطفال...أما هو «فلقد بدا لها وسيمًا جدًا بهامته الرزينة وأكثر جاذبية من قبل وقد أضفت الخطوط البيضاء اللامعة على شعره الكث الأسود الكثير من الوقار» فما يزال يحتفظ بجاذبيته والتي تميزت بخطوط من الشعر الأبيض ليمنحها رغبة أكبر في العناق.

إنه وجه آخر لسقوط الأقنعة... فاحتمالات كثيرة تتجسد في شغف المرأة لحبها الأول برغم خطوط السنين المرهقة ... لذلك، لم تستطع هي إلا أن تسقط قناع الكبرياء وتستسلم لعناق حار طال انتظاره.

- (Red Rose)

••••

حين الوقت للحب كما الحياة... كما الخفق الذي يخبو ولكنه لا يموت... يصير ذاكرة وزمنًا وسيرة، تختفي خلف أقنعة من

الصبر والمكابرة... ولكنها، لا تضمحل.

هكذا... يمكن أن نتحدث عن الأشياء المعمرة التي تستحق أن تكون.

- (جنات بومنجل)

••••

قصة جميلة ومؤلمة، استطاع الكاتب رصدَ سنواتٍ طويلة من الفراق واستحضارها في قصة قصيرة، مع رسم الملامح الشعورية بإتقان.

- (صبري رسول)

••••

المبدع يحيى... بصراحة أتمنى أن تستمر في رصد هذه الوجوه لا أربعة وجوه، بل أكثر، ففيها لقطة منسجمة مع واقع معاصر ومُعاش... والفنان الحقيقي وحده قادر على التقاط مثل هذه الجماليات.

- (د. أسد محمد)

••••

- ردود على تعليقات قصة: سقوط الأقنعة

بقلم: يحيى الصوفي

تحياتي للجميع... أنا أحببت أن أعود هنا لكي أوضح نقطة مهمة جدا بالنسبة لي، ألا وهي:

- أولاً: أنني أكتب قصصي بعيدًا عن الإثارة من أي نوع.

- ثانيًا: إذا ما دققنا النظر مليًا... نلاحظ ومن خلال بعض العبارات تأكيد واضح على هوية البشر الإنسانية، وانتمائها إلى روح نبيلة، كان قد أودعها الله فيها، لكي يميزه عن سائر خلقه... إلى حد أنني استعرتُ في مقدمة قصتي، خلق الكون حيث يتجلى سبحانه وتعالى على العرش في اليوم السابع، بعد أن خلق الكون في ستة أيام... واعتبرت هذا اليوم السابع، من حياة هذه المرأة، هو اليوم الضائع من حياتها... لكي تحصل عليه باستعادة من تحب وترتاح!

إنه - بكل بساطة- اجتماع لأرواح تغص بالطهارة والعفو والتسامح والتسامي عن قشور الحياة الوضيعة... ولهذا، فهم لا يلتفتون رغم كل شيء إلى المظاهر الخارجية.

ونهايتي للقصة بتكورها في حضنه كجنين لم يغادر رحم أمه قط... هو نوع من التعبير المجازي عن طهارة اللحظة وعودتها إلى نقطة البداية.

وإن لم أشر إلى الروابط الدينية في القصة، فلعلمي بأنها مفهومة من سياقها، بأنه حُب حلال وطاهر، ويرتبط برباط شرعي ومقدس صحيح، والقصة القصيرة لا تتحمل الكثير

من الإسهاب، وأنا تركت لعقل وخيال القارئ، الحكم كلٌ بما يتناسب مع خلقه وتربيته.

- أخي صبري... اقرأ معي هذه العبارة البسيطة: «وبأن اليوم السابع من الأسبوع هو اليوم الضائع من حياتها والذي كان عليها أن تسترده لتتربع به على عرش السكون وترتاح» وتفحص المعنى والتصوير البليغ الذي شبه اليوم السابع من حياتها وكأنه يوم ضائع عليها أن تسترده بعد تعب الأيام الستة التي كافحت لبناء حياتها فيها... حق يشبه حق الخالق سبحانه وتعالى على استراحته فيه بعد خلق الكون.

والرمز المقصود في هذا المعنى بأن لكل منا يوم سابع يستحقه لكي ينال جزاء عمله وتضحيته في الأيام الستة التي سبقته، وبأنه مقدس قدسية خلق هذا الكون.

أو إذا أحببت تعال لنقرأ التالي: «ولكيلا يفهم صمتها على أنه استسلام من له دين عليها، بادرت في عناقه بحرارة وشوق، وهي تلتصق به متكورة في حضنه كجنين لم يغادر رحم أمه بعد»... هل هناك أجمل من هذا التعبير والتصوير الذي يشبه تكورها في حضنه كجنين لم يغادر رحم أمه بعد!

إنه بمثابة إعلان بأن أيامها الستة التي قضتها تبني حياتها بعيدة عنه مع شخص آخر وفي فراش رجل آخر... لم يفقدها عذريتها ولا طهارتها ولا براءة تفكيرها، لأن الأمر يتجاوز حدود الجسد المستهلك، إلى الروح الأبدية التي لا تكبر ولا تشيخ.

هذا إلى عشرات الرموز الصغيرة، التي تعبِّر بطريقة أو بأخرى، عن نوع العلاقة التي ربطتها به، والتي تختصر عشرات من

الصفحات وتؤدي كل منها دورها فيها.

وعلى هذا يا صديقي... أنا لست قاصًا أكتب للتسلية... أنا أكتب أدبًا وفيه فلسفة... وهذا الأدب يشبه إذا أحببت عمل المهندس المعماري، الذي يرسم لك المدن بكل تفاصيلها وطرقاتها وجسورها وحدائقها وأشجارها، فيجعلك تشعر وأنت تنظر إليها وكأنها جنة صغيرة تحبو فوق الأرض بكل جلالها... فلا يعرف إذا ما وضع شلال ماء هنا لماذا وضعه، ولا إذا ما أضاف شجرة هناك لماذا أضافها... ولا يهمه إذا ما رسم مجموعة طيور تحلق في الأفق في زاوية ما، أو أضاف شمسًا مشرقة في أخرى، كيف يمكن تنفيذ ذلك؟

إنه يخط ويرسم شكلاً عامًا متوازنًا ومؤثرًا، والباقي يتركه لذوي الاختصاص من المهندسين للتنفيذ (أي القُرَّاء للفهم).

طبعًا هذه فذلكة وبعض من شطحات الخيال التي عرفت بها... ولكن أنت توافقني وبلا شك بأنك قد تقرأ كتابًا من مئة صفحة، ولا تجد فيه صورة بلاغية واحدة تكفي وتعبِّر عن المعنى، وهذا هو مفتاح وسر الكتابة في الأدب.

••••

تعليقات وآراء حول قصة: (سقوط الحُب)

إنه سر ذلك الشعور الخفي الذي يجتاحنا دون أن نعرف لماذا نحب ذلك الشخص بالذات وفي أي زمن نحن؟

إنه الشعور الذي يقودنا إلى سعادة خفية بسحر الشوق وعظمة الحنان... هو سر اللهفة الذي يدفع بامرأة الحب أن تكون كغانية بين ذراعي حبيبها... وهو... يعشق نزوتها لأنها ككل النساء وهو ككل الرجال.

دمت متألقًا بوجه الحياة... كل الود.

- (Red Rose)

••••

مرحبًا... ربما لم تسمع قرع حروفي منذ مدة على أبواب إبداعك، ولم تلمح نشوة روحي في رياض إفرازات يراعك... لكنها ما فتأت تهوم حول الإبداع والمبدعين يا إمامهم.

كُلي إجلال لحرفك وتقدير... دمت موغلاً في الجمال الأعمق... لك من الود أجمله يا صديقي الطيب... وأستاذي المتمكن.

- (ندى القلب)

••••

إليك أخي الكاتب... أجدك قد طرقت دروبًا مخالفة لتلك التي ألفتها بالقص القصير... وأجدني أمام ملمح آخر لمظاهر التجديد... لا أنكر أنك كاتب قدير... ولا أنكر أنك تمتلك قدرًا هائلاً من أدوات القص القصير... غير أني في حاجة لأن أتلمس أعمالك بمزيد من القراءة... يحق لي أن أتابعك... ولك كل الأمنيات الطيبة

- (غازي)

••••

تعليقات وآراء حول قصة: (سقوط الشيطان)

اندفاعها نحوه محيية مقبلة على الوجنتين وهي تضمه فرحة أسقط عنه بعض من الحرج وقلة الحيلة التي وجد نفسه فيها وشجعه على مقابلتها بالمثل مرحبًا وهو يضمها إليه بشجاعة لم يكن يتصور بأنه يتمتع بها... خاصة مع الفتاة (المرأة) التي استولت على عقله وقلبه وجعلته رهينتها حتى اللحظة!

إنه الحب الذي يطلق لنا العنان في الخروج من كل أنواع الحرج والخجل، ويبعدنا عن كل ما هو مألوف، ليملك في قلوبنا شجاعة العشاق للإقدام والتحدي... ولكن قد نتجاوز تلك اللحظات ونحاول ان نغمض عيوننا حتى لا نصطدم بالواقع والعادات والتقاليد، وما يجعلنا نستفيق بعد تلك اللحظات الحميمة ما هي الا أخلاقنا وثقافتنا.

ففي التحدي انتصار على المجهول، وفي الصبر والوفاء للحب العذري الطاهر الذي جمعهم سلاحٍ فتاك قادر على إسقاط أعتى الشياطين، وبأنه إذا ما أراد حقًا أن يكون وفيًا للمرأة التي صنعت -ببعدها عنه- كل تفوقه أن يغفر لها ويكافئها على صبرها وحبها.

هي من كان سببًا في كل ما حقق من نجاح، فكيف له لا يكافئها الا بالطهر والنقاء ويبقيا على الحب العذري هو الاختيار الأصوب للإبقاء على ذلك الحب الى مالا نهاية وقهر الشيطان ليبقيا.. رغم كل شيء...

إلا صورة عفيفة نقية لمن أحب، فهي بعد كل هذا لم تكن أكثر

من انعكاس لصورته على صفحات الحياة الرقراقة النقية كالألماس... قاسية مثله وشفافة مثله وباهظة الثمن مثله تمامًا.

دمتَ رائعًا أستاذ يحيى.. ونتمنى ان نراك في قصص جميلة كهذه.

- (Red Rose)

••••

خرجوا... سقوط الشيطان... ولما عكست النهاية... ألم نتفق من البداية أنه المذنب بحقها؟

- (نورالأدب)

••••

واو جميلة جدًا... على ما يبدو أنه جمعهما شيطان مسكين... تحياتي لقلمك العبق.

- (آيـــة)

••••

جميلة وراقية برقي العمر الذي مضى... فأشاح على الزمن

ذكرى... فقد فعل فعلته الزمن ولن يقدر أي شيطان على إعادة ما سبق.

لك كل التحايا... مسرتي.

- (الرائد).

••••

تعليقات و آراء حول قصة:
(خطوة للأمام... خطوتان للخلف)

ليس لنا سوى أن نلملم الوقت بـ فرحة وبسمة... وليس أكثر من ذلك.

أستاذي يحيى: نص أكثر من رائع.

- (شاعرة الأقصى)

••••

ولماذا لا يكون السبب في التردد هو كوننا ملتزمون بتدين وتقاليد لا نريد الفكاك منها؟ وهي التي ترجعنا خطوتين وثلاثة وربما إلى نقطة الصفر؟

الرجل والمرأة يريدان التمتع بالحياة ولا يريدان التضحية بشيء يعتبرانه أثمن منه. وكل الذي يحصل أنهما ينجرفان بتيار الحب وما يتبعه بدافع الغرائز الانسانية التي تلجّ في دواخلهم.

تحية خاصة لك أستاذ يحيى.

- (مكي نزال)

••••

قطرة الدماء سيدي لا تعكِّر لون البحر! ... لذا كان هذا الفيصل اللاإرادي:

اقتباس: «فكلما تقدم أي منهما خطوة باتجاه الآخر... كان يبتعد خطوتين إلى الخلف».

- (نـور الأدب)

••••

لا تعلم يا أخ يحيى كم شكل أخذت ملامحي وأنا أقرأ لك الجزر والمد في العلاقات الحميمة بين اثنين يكاد يكون من الضروريات الحتمية لتستطيع المشاعِر بعد ذلك ممارسة وظائفها كما ينبغي لها حسب وجهة نظرها، إذ أن الجميل في الحُب أن نستمتِع بإحساسنا وهو يتألق في عطائه، أو يدافع بشدّة عن أشياء لا يستطيع التمثيل لإرضائها.

المهم، أنك كنت أكثر من رائع في قصتِك، نجحت في اختِطافي مني، رُغم كسلي الذي تأفف منه مطلع القصة.

دائمًا متألق.

- (روجينا محمد)

••••

لا شكّ سيّدي أنّك أبدعتَ هنا... ولا أريد الحديث عن نواحي الجمال فهي عديدة ... لنكن في السياق يا (مواطني) المغترب

مثلي ... أتراك يا سيّدي طوّعتَ مفرداتك بهذه البراعة كلّها لتكتبنا أنا وأنت وأشباهنا؟... أم لتكتب ذاك المسمّى الذي ينتظرنا أو نصبو لاستقرارنا فيه دون أن يمسّنا اللهب؟

كانت أشبه بسيمفونيّة عظيمةٍ سيطر عليها الشرق القاطن فيك يا صاحبي.

سجّل هنا إعجابي الشديد أيّها العزيز... ولتكن المحبّة عنوانه.

- (أحمد صويري)

••••

أديبنا يحيى: في زماننا ما أكثرهم من يسيرون خطوة للأمام.. وخطوات للخلف!!

قصتك وشت بأشياءٍ كثيرة... حبٌ ووطن وتفاصيلٌ صغيرة ووصفاتٌ لـ «كيف» نسير إلى الأمام.

راااائع ما عانقت هنا.

- (علا رباح عطا الله)

••••

قصة جميلة وتحصل أحداثها حتى بين الذين لايزالون معًا... فيضيع العمر بالقيل والقال، ويكبر الأولاد ويتزوجون، والنقار يكبر ويكبر بين الأبوين... ويعود ذلك للجهل.

وأما هنا فالأمر يختلف بإضافة اختلاف الزوجين فكريًا وانتماءً وعادات وتقاليد، فقد زادت الهوة بينهما عمقًا واتساعًا بسبب الغرور، وعدم فهم الآخر من كلا الجانبين. وصدق المثل القائل (من لا يأخذ من مِلته، يموت بعِلته).

أديبنا المُجيد يحيى الصوفي: لك شكري وتقديري على هذا العمل الجميل.

- (زاهية بنت البحر)

••••

تقدمتُ خطوة نحو هذه البانوراما الحياتية المدهشة، وتراجعتُ خطوتين مع الديلوج الغريب بين الزوجين الكبيرين سنًا... وأعادتني بسمة الشباب وزوجاتهم خطوتين للأمام، وخشيت الاصطدام بالواقعية لأستاذنا الصوفي، فعدت خطوة للحكاية ودلالاتها، لكن هذه المرة بحثًا عن نقطة ما استند عليها معها بعيدًا عن وجهه -حيث تتربع عليه ابتسامته الساخرة المخيفة- وذلك تحت ظلال شجرة السنديان الضخمة، التي تتربع وسط الحديقة الصغيرة، في شبه الجزيرة القائمة على نتوء بسيط يطل على بحيرة جنيف... لتضفي الطبيعة الساحرة للمكان دلالاتها أيضًا.

- (الشربيني المهندس)

••••

«تريد حُبًا بالمجان... امرأة تحبك وتضحي لأجلك بدون ثمن! هكذا تفهم الحب وتفهم التضحية؟!».

هكذا يريد كل الرجال... هكذا يغضون الطرف عن كون المرأة كائن جميل يحلم، ويطمح، ويصعد درجات الأمل... فتغلفه شرانق الرجولة التي تجتث أشجار الحلم البعيد.

رائعة القصة، بل وأكثر من عميقة... أرى الخطوات تتجسد أمامي، وسرعان ما تسير عكس نفسها.

سلمت وسلم مدادك. تحياتي.

- (شيرين)

••••

«ولهذا يفاجأ بعضنا عندما يستوطن بلدًا ما -في رحلة حياته- من التصنيف، وذلك حسب المصلحة والظرف (متعلم، غني، أو جميل) وهذا ينطبق تماما على الهجرة الداخلية داخل الوطن الأم أو داخل الوطن الأكبر (البلاد العربية) وعلى أي مواطن في الغرب دون استثناء... وفي بعض الأحيان داخل مدينته أو قريته أو حيه حيث يلعب الاسم واللقب دورًا مهمًا»... وكم تلتحفنا الغربة ثوبًا نعصي به على ذكرياتنا وربّما مستقبلنا أيضًا.

صديقي العزيز... وتلك الخطوات تصرّ على المضيّ بنا إلى حيث لا نعلم... وحسب مشيئتها لا بدّ من تراجعنا نصف المسافة الّتي ننوي تقدّمها... ترى... أهو إيماننا بكرويّة الأرض؟ علّها وحدها الّتي سترجعنا لأرضنا الّتي نريد وربّما بعد

دهر... ولكن... أتراه سيكون الوقت مناسبًا آنذاك؟!

يحيى الصوفي.... أراني كثيرًا بين كلماتك... وما زلت أنتظرك هناك يا صديقي... فلك محبّتي

- (أحمد صويري)

••••

إني أقف أمام شاشة الحاسوب وكُلي أمل بأن أفي لك أيها الكاتب بما يختلج في الصدر، وما يريد القلب النطق به ولا يستطيع، حيث تقف حبسة تدعى الانبهار بالموقف دون قول ما يجب قوله.

- (عاشق الشعر)

••••

أبحرتُ مرارًا وتكرارًا بين ثنايا أحرفك ومناجاتك... كدت أغرق لولا لطف الله... ولم أرغب كثيرًا في الخروج منها، لما وجدته من روعه وإبداع لا يضاهيها بين تلك الأنامل الماسية.

رائع ومميز... ودمت لذلك أستاذي عنوانًا. تحياتي لك الأبدية.

- (الشاجي)

••••

هكذا، جعلتني أُسافر معكَ بعيدًا، في غَياهب الغيب، والعشق.
لن أُبدي تعليقًا... بل أشكركَ من الأعماق.
- (بهجت الغباري) / باريس

••••

بطاقة شكر وتقدير وإعجاب بكتابتك الرائعة والتي تلامس الوجدان والروح والضمير.
لا توجد كلمات أستطيع أن استخدمها للتعبير عن إعجابي بكل ما تكتب... لما في كتاباتك من عمق بالأفكار، ورقة بالمشاعر وروعة لفهم دين الإسلام بشكل صحيح.
- (Moon)ن / اللاذقية

••••

الآن فقط قد تعرفت عليك، وقراءة بعض ما كتبت، وكل شيء... قد أعجبني كلامك وقلمك، إن دل يدل على شخصية عظيمة، وأنا أمام هكذا شخصيه لا أقاوم وأسلم في الميدان.
- (هدى شبر)

••••

- ردود على تعليقات قصة: خطوة للأمام.. خطوتان للخلف

بقلم: يحيى الصوفي

إنها نعمة من الله... وسُنة الكون هذا الذي نسميه الحب، لا يعرف وطنًا، ولا جنسًا، ولا لُغةً... هو الوحيد بين المشاعر كلها التي لا يحتاج للكلام... نقرأه في العيون، ونشاهده في ابتسامة، ونشعر به بلمسة حنان... وهو الوحيد الذي لا يعرف الشيخوخة أو الهرم أو المرض أو الموت.

إنها هبة الله... منحت مع الروح لا ينقضي أو يزول إلا بزوالها... والروح هي من بعض الخالق سبحانه وتعالى، أبدية ولا تعرف الفناء.

ولهذا آسف لمن لا يقدر هذه النعمة ويستغلها لما فيها خيره وخير الآخرين... وآسف أن يفرق بين المحبين إرث أو وطن أو دين... وأجد من الطبيعي جدًا أن تختلط الشعوب وتمتزج الدماء، وأن تتوج رحلة المسافرين والمهاجرين بعلاقات تعارف وصداقة وحب وزواج، دون قيود أو محاذير أو ملاحقات أو تشهير.

ولقد عرفتْ الحضارات القديمة مثل هذه الأنواع من الهجرة، ومثل هذه الأنواع من علاقات الحب والزواج... وكما كانت زيجات الأمراء والملوك بين أفراد عائلاتهم تمتن أواصر المحبة والقرابة وتمنع الحروب، كانت كذلك بين أفراد القبائل، وهي تتحرك وتهاجر خلف الكلأ والمرعى أو التجارة... هذا إذا لم يكن هذا الاختلاط نتيجة الغزوات والحروب.

ولهذا ورثنا من أوطاننا حُب المخالطة والعشرة والانفتاح على الآخر وثقافته ودينه... وذلك لكثرة الأعراق والأجناس البشرية التي عبرت أو استقرت فيها... وهو ما أعطى لبلادنا أعلى نسبة من الذكاء والحنكة والجمال في العالم.

ولهذا فان أول قانون إصلاحي يصدره نابليون بعد زيارته لمصر والتعرف على حضارتها وسكانها، وهو أب ومؤسس القوانين المدنية والتشريعية في فرنسا (الذي لازال ساريًا إلى الآن)؛ هو منع حد التحريم زواج الأقارب (الأنساب) (أولاد العم والخال) والتشجيع على المخالطة مع الأجناس الأخرى، لتحسين النسل... وهو ما أعطى لفرنسا، وقبلها إسبانيا، وقبلها أبعد بكثير تركيا وإيران؛ هذا الوجه الحضاري اللامع.

ولهذا يفاجأ بعضنا عندما يستوطن بلدًا ما -في رحلة حياته- من التصنيف وذلك حسب المصلحة والظرف (متعلم، غني، أو جميل) وهذا ينطبق تمامًا على الهجرة الداخلية داخل الوطن الأم أو داخل الوطن الأكبر (البلاد العربية) وعلى أي مواطن في الغرب دون استثناء، وفي بعض الأحيان داخل مدينته أو قريته أو حيه حيث يلعب الاسم واللقب دورًا مهمًا.

إذًا تهاجر الطيور تبحث عن الغذاء والدفء والحب... وأثناء رحلتها تتزاوج وتنجب وتعود مع صغارها للوطن... ثم يبدأ جيل آخر بالهجرة ليتفقد مسقط رأسه وحديقة طفولته، فيكمل دورة الحياة بوطن كبير كبر العالم لا يعرف حدود ولا قيود (اشتهيت أن أكون طيرًا).

ودفؤنا وغذاؤنا نحن العرب يا أَعِزَّائِي غادر أوطاننا منذ زمن... ولهذا نحن نغادر خلفه حتى ننعم ببعض خيراته والتي هي حق مشروع لنا قبل غيرنا... ونساهم باستمرارية وتطور حضارتنا

التي لم تغب شمسها كما يحلو للبعض أن يدعيه... لأن حضارة الغرب ما هي إلا امتداد طبيعي وشرعي لحضارتنا شئنا أم أبينا... إلا إذا كانت الحضارات تخلق من العدم.

وثقوا تمامًا بأن أيًّا من الجنسين لن يجد صعوبة في التفاهم والحب والزواج، فهي من مسلمات الحياة وبديهياتها... ولكن البشع فيها (وهي موضة جارية هذه الأيام في البلاد العربية) هو البحث عن أسباب للفشل أو الخيبة، التي تقع في العلاقة بين أي شخصين (زوجين، حبيين) خارج العلاقة الحميمة والصراحة -التي تكون قائمة عادة فيما بينهما- إلى الأهل والمال والأولاد.

إنها مجرد مبررات لا أكثر لفشل علاقة قوية ومتينة لم تكن موجودة أصلاً إلا كوهمٍ في عقولهم (قد يكون سببها نجاح العلاقة الجنسية واختلاطها بمشاعر الحب، وهما شيئان مختلفان تمامًا).

والقصة تتطرق إلى بعض هذا الخلط في المشاعر والبحث عن الأعذار خارج إطارها الحقيقي... لتطال استعادة المشاعر المفقودة للأهل (رضا الوالدين)، أو الحصول على المال، أو الاستئثار بالأطفال لمجرد حرمان الطرف الآخر منها... (دون النظر إلى النتائج أو الضرر الذي من الممكن أن يلحق بهم).

ولا زلت أذكر إلى الآن جواب إحدى الفتيات السويسريات التي كانت تعمل عندي (دورة تدريبية في الصيف) عندما سألتها عن مشاعرها كونها تعيش بين والدين مطلقين (وكان هذا الأمر مستهجنًا وصعب الفهم لدي) وبأنها لا تحمل عقدة لذلك بقولها: «أفضل ألف مرة أن يعيش كل منهما حياته بعيدًا عني من أن أسمع صراخهما وشتائمها كل يوم!»

عاديك عن مئات الأمثلة التي يقشعر لها البدن وكلها تصب في نهر واحد هو المال والانتقام.

وإذا ألقيتم نظرة على الحكايات البسيطة التي كانت تتحفنا بها جداتنا ومنها (دائرة الطباشير) تدل باختصار شديد وبسيط حالة الأم والأب الذي يحب ولا يكره (أن يصل بها الحال عن الاستغناء عن ابنها على أن يتقطع أشلاء).

وأخيرًا يبدو بأنني قد شردت وتوسعت في الكلام عن موضوع أراه بنظري بسيط جدًا وهو بأن المحب الصادق في حبه لا يؤذي أبدًا... أبدًا... مهما كانت الأسباب.

••••

● ● ● ●

المؤلف في سطور

• يحيَى الصُّوفي

• أديب وكاتب صحفي وناشر، استشاري في نشر الكتب الإلكترونية (eBooks)

• من مدينة حمص في سوريا، درس وأقام في جنيف (سويسرا)، ثم قطر، حاليًا في باريس / فرنسا.

• كتب العديد من الأعمال الروائية والقصصية (منها مجموعات موجهة للطفل والناشئة)، والمسرحية والشعرية، بالإضافة للخاطرة والمقالة بأنواعها، الدراسات، أدب المراسلات والسيرة.

– نشر بعضها في صحف ومجلات عربية (ورقية والكترونية) عدة يصعب حصرها.

– مؤسس ورئيس تحرير موقعي القصة السورية والمحيط للأدب في جنيف ٢٠٠٤

– مؤسس ومدير محطة Yahia Soufi TV للثقافة والترفيه والإعلام، في الدوحة ٢٠١٧

• له في الرواية:

– نارين (الحب الضائع): رواية لم تنشر بعد.

– أختي توأم حياتي: رواية لليافعين لم تنشر بعد.

• قصص أطفال وناشئة:

– صندوق كرم: قصة للناشئة / نشرت بمناسبة العيد الوطني لقطر.

- عيون تطير: قصص أطفال / لم تنشر بعد.
- بائع الأحلام: قصص أطفال / لم تنشر بعد.

• له ضمن الكتب الالكترونية المنشورة أو المعدة للنشر ورقيًا:

- مجموعته السُباعيَّةُ، والتي تشترك جميعها -سواءً من حيث الشخصيات، أو من خلال ترابط الأحداث والأماكن التي جرت فيها- بلحن واحد، وتضم الأعمال التالية:

١- وجوهٌ أربعةٌ للقاءٍ حارٍ جِدًا / قِصَص
٢- الوَردةُ الجوريةُ الحَمراءُ / مَسرَح
٣- حبٌّ عبرَ الأَثِير / أدَبُ المُراسَلاتِ
٤- نَسمةُ الغَربِ: مِن دَفاترِ الوَطنِ العَتيقةِ / شِعر
٥- الحُجرَةُ السِريَّةُ: مِن وَحيِ القلبِ / شِعر
٦- الخاتَمُ الرَّخيص: مِن وَحيِ الروحِ / شِعر
٧- نِسائي الأُخرَياتُ: ما ملكهُ قَلبي بالحُبِ / أدَبُ السيرَةِ

• في الخاطرة:

- مجموعته الرُباعيَّةِ: التي تشترك جميعها بروح واحدة... وتضم الأعمال التالية:

١- نَزهَاتٌ فِكريَّةٌ: مِن وَحيِ القَلبِ / خَواطِر
٢- خُطواتٌ وَخُطوطٌ: مِن وَحيِ الرّوحِ / خَواطِر
٣- فُسَيفِساءُ: مِن وَحيِ الحَياةِ / أدَبُ السيرَة
٤- القَرينُ: مِن وَحيِ العَقلِ / خَواطِر فلسفيَّة

• في الدراسات:

- أدب وفن كتابة القصة: كيف أصبح كاتب قصة؟ / دراسات

• في المقالة والخاطرة السياسية:
مجموعته التُساعيَّةُ: ضمن إصدارات تسع، عن الثورة السورية، وتضم الأعمال التالية:
١- الجزء الأول: الفصل الأول / الانتِصارُ عَلى الخَوفِ
٢- الجزء الأول: الفصل الثاني / أسَابيعُ الغَضَبِ
٣- الجزء الثاني: الفصل الأول / الجَيشُ الحُرُّ يَحمينا
٤- الجزء الثاني: الفصل الثاني / مُفاوَضاتٌ بِالقَتلِ
٥- الجزء الثالث: الفصل الأول / أنقِذوا سُوريَا
٦- الجزء الثالث: الفصل الثاني / التَّغريبَةُ السّوريَّةُ
٧- الجزء الرابع: الفصول الستة / أَعوامُ الخِذلانِ
٨- قصائد من زمن الثورة: / أَلحانُ الصُّمودِ
٩- ثورات الحرية والكرامة: / ثَوْراتُ الرَّبيعِ العَرَبِيِّ

• بالإضافة لعشرات المخطوطات، لمشاريع كتب متنوعة، في الخاطرة والتربية وعلم الاجتماع والنفس والسيرة، بعضها يدرس على طلبة الثانوية والجامعات في بعض الدول العربية.

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net